ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

النخب السياسيّة العربية والتاريخ
تأمّلات في علاقة السياسيّين بالتاريخ وأشكال الكتابة التاريخيّة
حالة تونس نموذجًا (١٩٥٦ ، ٢٠١٠)

د. عادل بن يوسف
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة سوسة
مخبر الدراسات المقارنة والمتناهجة
جامعة صفاقس – الجمهورية التونسية

مُلَخّصْ

نهتمّ في هذه الدراسة بعلاقة السياسيّين العرب بالتاريخ وأشكال الكتابة التاريخيّة أثناء وجودهم في السلطة من خلال حالة النخبة السياسية التي تداولت على الحكم بتونس منذ الاستقلال إلى غاية اندلاع "ثورة" الحريّة والكرامة. وليست غايتنا من وراء ذلك الحكم على هؤلاء السياسيّين أو لفائدتهم بالتحقيب لمختلف الأحداث والمحطات التاريخية الكبرى التي مرّوا بها بين ١٩٥٦ و٢٠١١، ولا كذلك بالتطرّق للبرامج الرسمية المعتمدة في مادة التاريخ في مختلف مستويات التعليم الثلاثة (الابتدائي والثانوي والعالي) والمناهج والوسائل البيداغوجية المستخدمة في تدريسها منذ تَوْنَسَةِ المدرسة التونسية سنة ١٩٥٨ (في إطار ما يعرف ببرنامج الأستاذ محمود المسعدي) ...، بقدر ما نسعى إلى التعرّف على أشكال كتابة النخبة السياسية الوطنية للتاريخ خلال فترة الحماية والنضال الوطني ضد المستعمر الفرنسي (١٨٨١–١٩٥٦) ثمّ – وهو الأهمّ بالنسبة لنا – إبّان مباشرتها للحكم منذ مطلع الاستقلال إلى حين إزاحتها عنه في (جانفي/ يناير) ٢٠١١. ولن يكون تناولنا لمسألة على غاية من الأهمية متصلة بهذا "العلم الجامع" لكل العلوم وفق مقاربة منهجية وبيداغوجية، لأنّ ذلك يبقى من مشمولات المختصين في علوم التربية والبيداغوجيا التعليمية " didactique de l'enseignement La"Teaching didactics"، بل وفق مقاربة في المضمون تستند إلى لمضامين الوثائق التاريخية المتاحة لنا من نصوص وخطب وتصريحات وصور وتسجيلات سمعية – بصرية، بتحليلها وتمحيصها واستجلاء ما بها من معطيات متصلة بعلاقة النخبة السياسية التونسية مع علم التاريخ وأشكال تعاملهم وتفاعلهم معه. سنعرّف في القسم الأوّل من الدراسة وتحديدًا في العنصر التمهيدي منها بملامح النخبة السياسية التونسية وظروف تشكّلها خلال الفترة المعاصرة (بمختلف مكوناتها وأصنافها وتفرعاتها: التقليدية والعصرية...). أمّا القسم الثاني فسنخصّصه لنظرة هؤلاء السياسيّين وفي مقدمتهم الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة وغالبية الشخصيات التي عملت معه من: وزراء وكتّاب دولة وولاة ودبلوماسيّين وموظفين سامين في جهازَيْ الدولة والحزب الحاكم ...، للتاريخ وأشكال تعاملهم معه وكتابته منذ مطلع الاستقلال إلى غاية سقوط نظامه يوم ٠٧ (نوفمبر/ تشرين الثاني) ١٩٨٧. أمّا القسم الثالث والأخير من الدراسة فسنخصّصه لأشكال الكتابة التاريخيّة من طرف السياسيّين التونسيّين خلال فترة حكم الرئيس الأسبق زين العابدين بن علي (١٩٨٧–٢٠١١)، فيما سيكون العنصر الثاني منه نظريًا بالأساس بالخوض في الطريقة "المثلى" التي يمكنها التأسيس لكتابة تاريخية علمية وموضوعية مستقبلا من قبل رجالات السياسة، لا في تونس فحسب، بل في العالم العربي بصفة عامة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٩ يونيو ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ١٥ سبتمبر ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:

المصادر التاريخية، التاريخ الوطني، الحزب الدستوري، زين العابدين بن علي، الحبيب بورقيبة

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0051268

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عادل بن يوسف. "النخب السياسية العربية والتاريخ، تأمّلات في علاقة السياسيين بالتاريخ وأشكال الكتابة التاريخية: حالة تونس نموذجا (١٩٥٦ ، ٢٠١٠)".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد التاسع والثلاثون؛ مارس ٢٠١٨. ص١٧٥ – ١٩٨.

ملف العدد

مُقَدِّمَةٌ

لا يختلف اثنان في أنّ تاريخ البشريّة قد كُتب في العقود الأخيرة "من أسفل إلى أعلى"، أي بالتركيز على المستضعفين والمستغلين والمحرومين...، في المجتمع، وذلك بغاية إبراز دور الطبقات الشعبية في تاريخ كل بلاد.[1] أمّا كتابة التاريخ فتكون "من أعلى إلى أسفل"، أي بالتركيز على دور النخب وتحديدًا السياسيّين منهم، ورغم هيمنتها على الكتابة التاريخيّة منذ العصور القديمة و"التأسيس" لها من قبل الملوك والخلفاء والسلاطين والرؤساء والكهنة... الذين كتب بعضهم يوميات أو مذكرات وسير ذاتية... خاصة بهم، مستعينين بمؤرّخي البلاط والقصر والكنيسة، فإنها تبقى محدودة.

غير أنه منذ مطلع الفترة المعاصرة نما هذا الجنس من الكتابة في الأوساط السياسية بنسق مطّرد، سواء في أوساط الملوك والأمراء والرؤساء والوزراء وكبار المسؤولين ورجالات الدولة...[2]، أو في أوساط المقاومين والمناضلين والنقابيّين الذين شغلوا الشأن العام والحياة السياسية لفترات متفاوتة من حيث المدّة والأداء. ولم يشذّ السياسيّون بالدول العربية عن هذا المنحى. فقد لاحظنا منذ خمسينيات القرن الماضي اهتمامًا غير مسبوق بالتاريخ وإقبالاً على كتابته. ورغم أهميّة الكتابات والإصدارات التاريخيّة، سواء الرسمية منها (الصادرة عن الحكومات) أو الخاصّة (الصادرة عن السياسيّين على نفقتهم الخاصّة)، فإنّ مضمونها للأسف لم يُكتب بالقدر الكافي من الموضوعية والصرامة العلمية ولم يتمّ تفكيك وتحليل الآليات والديناميات المتصلة به وخاصّة التعريف بجميع الشخصيّات الفاعلة فيه والتي أسهمت بشكل أو بآخر في صنعه من: مناضلين ومقاومين ونقابيّين وحقوقيّين ورجال دولة ودبلوماسيّين...، أو من مكوّنات الطبقة السياسية والإدارية الذين اعتلوا سدّة الحكم بمختلف الأقطار العربية منذ استقلالها عن الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية (قبيل الحرب العالمية الثانية بالنسبة لدول المشرق العربي ومنذ مطلع الخمسينات بالنسبة لدول المغرب العربي).

وقد تنوعت الكتابات التاريخيّة لهؤلاء السياسيّين فتراوحت بين الكتب والمذكرات والسير الذاتية والخطب والمحاضرات والمقالات والحوارات...، حول الأحداث التي ساهموا في صنعها (خلال فترة الكفاح الوطني) أو المناصب والأدوار التي اضطلعوا بها في أجهزة الحزب والدولة بدولهم، مشرقًا ومغربًا منذ فجر استقلالها. ولم يشذّ السياسيّون التونسيّون منذ فجر استقلال البلاد عن هذا الاتجاه. لهذه الأسباب وبحكم اشتغالنا على النخبة التونسية العصريّة قُبيل وإبّان الفترة الاستعمارية (١٨٨٠-١٩٥٦) ومطلع الاستقلال،[3] فقد استرعى انتباهنا كثرة الكتابات التاريخيّة للسياسيّين بتونس المستقلّة. وهو في المطلق مؤشّر هام على نضج النخبة السياسية التونسية وأهمية حسّها الثقافي والفكري...، لذلك آلينا على نفسنا دراسة واستقراء وتفكيك هذه "الظاهرة" الملفتة للانتباه.

ولا نهدف من خلال دراستنا هذه التطرّق إلى أشكال الأداء السياسي لهؤلاء السياسيّين أثناء وجودهم في السلطة، وذلك بالحكم لهم أو عليهم والتحقيب لمختلف الفترات والمحطات التي مرّوا بها بين ١٩٥٦ و٢٠١١ ولا إلى البرامج الرسمية لمادة التاريخ في مختلف مستويات التعليم لدراستها وتحليلها من قبل المختصّين في تاريخ التعليم ومناهجه ووسائله البيداغوجية بتونس منذ تَوْنَسَتِهِ سنة ١٩٥٨ (في إطار ما يعرف ببرنامج الأستاذ محمود المسعدي)، بقدر ما نسعى إلى التعرّف على أشكال كتابتهم للتاريخ، بدءًا بالفترة الاستعمارية مرورًا بممارستها للحكم – وهي محور اهتمامنا – وصولاً إلى خروجهم نهائيًا من الساحة السياسية.

أولاً: مدخل تاريخي: (السياسيّون في تونس المستقلّة: ملامحهم وأدوارهم)

١/١- ما المقصود بالسياسيّين؟

إشكاليّة المفهوم:

لغة:

حسب قاموس المعاني: السياسيّون والساسة من فعل ساسَ [سُسْتُ، أَسُوسُ، سُسْ، مصدر سِيَاسَةٌ] وسَاسَ الدَّوَابَّ: اِهْتَمَّ بِتَرْبِيَتِهَا وَتَرْوِيضِهَا والاعْتِنَاءِ بِهَا وسَاسَ أُمورَ النَّاسِ بِالحَقِّ: تَدَبَّرَهَا، تَوَلَّى تَدْبِيرَهَا وَتصْرِيفَهَا. ومَنْ يعمل في السِّياسة، متعلِّق بإدارة الشّؤون العامّة وتنظيمها سياسيّ محنّك/مخضرم... جاء في لسان العرب لابن منظور أن السياسة مصدر للفعل ساس يسوس، وساس الأمر سياسة: قام به، وسوسه القوم: جعلوه يسوسهم. ويقول مجد الدين الفيروز آبادي- صاحب القاموس المحيط - سُسْتُ الرعيّة سياسة، أي أَمَرْتُهَا ونهَيْتُهَا. وقال ابن حجر: يسوس الشيء أي يتعهده بما يصلحه والسياسة فعل السائس الذي يسوس الدواب سياسة، أي يقوم عليها ويروضها، والوالي يسوس الرعية أي يأمرهم.

وجاء في الحديث النبوي الشريف: "كان بنو اسرائيل يسوسهم أنبياؤهم"، أي يتولون أمورهم كما يفعل الولاة بالرعيّة. كما وردت كلمة سياسة ومشتقاتها في شعر العرب، تقول الخنساء: "ومعاصم للهالكين وساسة قوم محاشد". ويقول أبو العلاء المعري: "يسوسون الأمور بغير عقل فينفذ أمرهم ويقال ساسة". وقال الحطيئة: "يسوسون أحلامًا بعيدًا أناتها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجدّ".[4] وبشكل عام يمكن القول إنّ السياسة في اللغة العربية تشير إلى معنى الرياسة والقيادة والذكاء والفطنة والكياسة والدهاء. وفي القواميس الغربية مرادفها هو كلمة "Policy" وتعني السياسة كفنّ أو كممارسة يقوم بها السياسيّون.

اصطلاحًا:

السياسة هي السعي للسلطة من أجل بسط النفوذ. وعلى الرغم من الاتفاق حول هذا الهدف (بسط النفوذ). إلاّ أنّ هناك اختلافا حول الهدف من بسط النفوذ، فبينما يرى البعض أنّه لتحقيق مصالح ذاتية، يرى آخرون أنّ الهدف هو السعي لتلبية حاجيات المجتمع، وتحقيق الصالح العام. والسياسة هي فنّ الخداع أي "فنّ حكم البشر عن طريق خداعهم" وهي المكر والخداع والمساومة. والسياسي هو الذي يجيد المكر والخداع.

وكلما كان السياسي مخادعًا، كان ناجحًا وقادرًا على الاحتفاظ بالسلطة لفترة أطول.[٥]

وعمومًا ليس المقصود بالساسة والسياسيّين قطعا بالفئة الحاكمة الممسكة بدواليب الدولة والإدارة. لكن قناعتنا هم من كانوا أيضًا خارج الحكم. وتأكيدا لذلك يميّز عالم الاجتماع ورجل الاقتصاد الايطالي "فيلفريدو باريتو "Vilfredo Pareto" -1923) (1848 يميّز بين فريقين من السياسيّين: فريق يَحْكُمُ وفريق لا يَحْكُمُ. وفي الوقت الذي يُجَاهدُ عناصر الفريق الحاكم في المحافظة على مكانتهم، فإنّ عناصر الفريق الذي لا يحكم يُجاهدون في إتعاب الفريق الحاكم والتصدي له بشتّى الأشكال والطّرق والوسائل بغاية إزاحته وافتكاك مكانه، أي ما يوافق بلغتنا اليوم بالمعارضة. فكان "فيلفريدو باريتو" أوّل من تحدث عن النّخبة السياسية في القرن التاسع عشر. أمّا "قايتانو موسكا "Mosca Gaetano" (١٨٥٨-١٩٤٤)، فبوصفه سياسيًا وعالمًا وصحفيًا إيطاليًا، فقد كان له الفضل في تطوير نظرية الصّفوة ومصطلح ما يعرف اليوم بـ "الطبقة السياسية " Une Classe politique". فكان إلى جانب كل من "فيلفريدو باريتو" و "روبار ميتشيلز "Robert Michels" من مؤسّسي "المدرسة الايطالية للصّفوة "Italian School of Elitists".

وتأكيدًا لذلك صنّف بعض علماء الصّفوة وفي مقدمتهم الايطالي "باريتو" وعالم الاجتماع الأمريكي "شارل رايت ميلز "Charles Wright Mills" (١٩١٦-١٩٦٢) النّخبة السياسية صنفين: نخبة حاكمة "Une élite au pouvoir" ونخبة غير حاكمة "Une élite en dehors du pouvoir" وأنّه يمكن لهذه الأخيرة أن ترتقي إلى الحكم والعكس بالعكس. كما يمكن لشرائح أو فئات من الصّفوة السياسية أن تحتكر السلطة الاقتصادية فتعبّر عن نفسها دون تعريف أو وعي بكونها جماعات أو شرائح وسيطة "Médiatrices". ومن هذا المنطلق ومن الأجدى ألا تقتصر دراسة السياسيّين والنخبة السياسية على الطبقة الحاكمة وإقصاء الطبقة غير الحاكمة، لأنّ أدوار وتجربة العديد من بين هؤلاء الفاعلين الخلفيّين" أو في "الواجهة الثانية" و"الثالثة" وحتى في الصفوف الخلفيّة، قد تكون حسب "قايتانو موسكا" أفضل أداءً وأجدى وأنفع للبلاد وللمجتمع أحيانًا من أدوار الطبقة الحاكمة.[٦]

لكلّ ما تقدّم سوف لن نقتصر في دراستنا على عناصر النخبة الحاكمة فحسب، بل سندرس موقف بعض الأسماء والوجوه السياسية من نظيرتها القابعة خارج سدّة الحكم في مواقع نضال اجتماعي ونقابي وثقافي بالقول والفعل وخاصّة بالقلم عبر الكتابة والتدوين والتحرير...، في الحقل التاريخي.

٢/١- ملامح السياسيّن في تونس منذ مطلع الاستقلال:

يرى أحد خبراء القانون أنّ "النّخبة السياسيّة الحقيقيّة هي التي يمكن أن تحمل قيمةَ تغيير سياسي حقيقي، وهي نخبة تفرزها عمليّة النضال الجمعيّ من وسط الجماهير". واستنادًا لهذه المقولة فإنّ ميلاد النّخبة السياسيّة قد ارتبط أولاً وقبل كل شيء بشرط النضال السياسي زمن الاستعمار. وبالتالي ومن وجهة نظره فإنّه "ليس بالإمكان الحديث عن نخبة سياسيّة تنشأ في غرفٍ مغلقةٍ في العاصمة، أو في حضن الحكم التسلّطيّ، ثمّ تسعى إلى إنشاء جسور مع الجماهير، التي لا تستجيب، ولها كلُّ الحقّ في ألاّ تستجيب، ثم لا تخجل هذه "النّخبة" من اتهام الجماهير بالسلبيّة والخنوع... ".[٧] فما هي ملامح السياسيّين في تونس المستقلّة؟

وللتذكير فإنّ السياسيّين في تونس قبل فترة الاستعمار الفرنسي، من رجال الدولة والمخزن المنتشرين في كامل أنحاء البلاد، لا سيّما بالمدن والقرى والتجمّعات السكنيّة الكبرى. أمّا الأرياف موطن القبائل البدويّة، فقد كانت خاضعة لزعماء القبائل والعشائر أو المحاربين الذين كانت تربطهم علاقات وطيدة ببعض رجال الدين والتجار والوسطاء بالمدن... وكانت هذه الجماعات تحكم وفق علاقات أبويّة مبنيّة على مبدأ "الرئاسة" بالمعني الخلدوني القائم على العصبيّة القبليّة... وكانت تستمدّ نفوذها من القوانين القبلية التي غالبا ما تعطي تميّزا لجماعات بعينِها حسب الرتبة أو السنّ أو الانتماء إلى القبيلة.

ومع حلول الاستعمار الفرنسي- وبداية اندماج النظم التقليدية في المنظومة الغربية الحديثة، برزت للوجود وجوه جديدة نَمَتْ مع ظهور المؤسّسات الحديثة. كما ساهم التعليم العصري في بروز نخب عصريّة جديدة في جميع الميادين والمجالات: ملاّكون وتجّار كبار، محامون، أطبّاء، رجال تعليم، صحفيّون، صناعيّون، موظّفون...[٨] ومن بين هؤلاء تشكّلت النخبة السياسية العصريّة الوطنيّة التونسيّة التي نادت، أولا بتشريك الأهالي في إدارة شؤون البلاد ثمّ بالنضال السياسي ضد المستعمر، تارة بالمفاوضات، وتارة أخرى بالتظاهر والإضراب والعصيان المدني...، وأخيرًا بالكفاح المسلّح بين ١٩٥٢ إلى غاية انتزاع الاستقلال الداخلي في ٣١ جويلية/يوليو ١٩٥٤ والاستقلال التم في ٢٠ مارس/آذار ١٩٥٦.

وإحقاقًا للحقّ، فإنّ هذه النخبة السياسية مدينة في نشأتها للمدرسة الاستعماريّة على حد قول الزعيم الجزائري فرحات عبّاس الذي اعترف بالتأثير الذي مارسته المدرسة على سلوكه وطريقة تفكيره في أبلغ عبارة بقوله: "حين كنت أبلغ من العمر اثني عشر سنة كنت أعدُو في الحقل حافي القدمين دون أن أسمع كلمة واحدة من الفرنسية، لا فرق في ذلك بيني وبين راعي الماشية في قريتنا. واليوم بفضل المدرسة صرت قادرًا على بناء أسرة وتربية أولادي، كما صرت قادرا على أن أعيش وأموت من أجل وطني...".[٩]

ولعلّ هذا ما يفسّر عدم تجانس السياسيّين التونسيّين فهم سليلو نخبتين ولا نخبة سياسية واحدة. فاجتماعيا هم من شرائح اجتماعية ومهنيّة مختلفة، حتى وإن كانوا من حاملي الشهادات العليا من أصحاب المهن الحرّة: محامون، أطبّاء، صيادلة ومهندسين... وكبار أعوان الإدارة ورجال التعليم في مقدمة محترفو العمل السياسي الخالص. وعلميًا لهم تكوين متباين: من خرّيجي جامع الزيتونة المعمور وفروعه ومن خرّيجي المدارس والمعاهد والجامعات العصرية بتونس وفرنسا. بمعنى أنه يمكن تصنيفهم إلى نخبتين: واحدة تقليديّة وأخرى عصريّة، وذلك خلافا لما كانت عليه الحال خلال الفترات البعيدة السابقة للاحتلال الفرنسي. والمتأمّل في هذه النخبة السياسية العصريّة التونسيّة يلاحظ أنّها لم تقتصر على العنصر الرجالي فحسب، بل شملت

أيضا العنصر النسائي (ولو بأعداد قليلة) بتشكّل نخبة نسائيّة منذ الفترة الاستعماريّة وتحديدا منذ مطلع ثلاثينيات القرن العشرين، رغم كثرة العراقيل والصّعوبات في مسارها. وقد تدعّم وزن وحجم هذه النخبة بالخصوص خلال فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ومطلع الاستقلال.

وقد ساهمت سياسة التعليم العمومي التي أرستها فرنسا في تونس منذ ١٨٨٣ بقسط كبير في تطوّر الفتاة التونسية المسلمة وارتياد أجيال متعاقبة من التلميذات المدارس العمومية – ولو باحتشام وبنسق بطيء –، بسبب كثرة الصّعوبات والعوائق الذاتيّة والموضوعيّة. وقد سمح ذلك منذ منتصف الثلاثينات بتشكّل نواة لنخبة نسائية على السّاحة، بما للكلمة من معاني ودلالات. ونتيجة لذلك لم تتأخّر المرأة عن احتلال مكان لها ضمن النخبة العصريّة إلى جانب أخيها الرّجل والاضطلاع بأدوار هامة في الحركة الوطنيّة ثمّ في بناء الدولة وتحديث المجتمع بعد ١٩٥٦. وخلافًا لتعليم الفتى، كانت مسيرة تعليم البنت التونسيّة المسلمة على النمط العصري "طويلة" و"عسيرة" إن لم نقل "شاقّة"، بحكم كثرة المحاذير والعراقيل الاجتماعية والدينية... لكن في المقابل سمحت "تضحيات" الفتيات التونسيات بنشأة وتشكّل نخبة نسائيّة عصريّة تونسيّة.

ورغم كونها أقلّ عددًا وانتشارًا من نظيرتها "الرجاليّة"، فإنّها لم تكن تقلّ عنها كفاءة واقتدارًا وإشعاعًا لم تغب عن الشأن العام وعالم السياسة والمحيط القريب منها وتحديدًا هياكل الحزب الحاكم (الحزب الدستوري والتجمّع الدستوري الديمقراطي) والمنظّمات الوطنية وفي مقدمتها الاتحاد القومي النسائي والاتحاد العام التونسي للشغل، رغم حضورها بالأساس في التعليم والصحّة والقضاء المحاماة... ونضالها أساسًا في الجمعيات والمنظمات الوطنية كالاتحاد النسائي الاسلامي والكشّافة ومجالي الإغاثة والطفولة ومقاومة الأميّة... زمن الاستعمار، قبل أن تلتحق بسدّة الحكم منذ مطلع الاستقلال على رأس المنظمات الوطنية وفي مقدمتها الاتحاد القومي النسائي التونسي- وهياكل الحزب الدستوري (اللجنة المركزية والديوان السياسي) والبلديات ومجلس الأمّة ومجلس النواب والإدارات المركزية... منذ مطلع الاستقلال.

ويمكن أن نذكر من بين عناصر النخبة السياسية النسائية كل من: شريفة المسعدي، شريفة السعداوي، راضية الحداد، فتحية المختار مزالي، أسماء الرباعي بلخوجة، وسيلة بن عمّار، درّة بوزيد، جليلة حفصيّة... والقائمة تطول. ورغم اختلاف الانتماء الاجتماعي للسياسيّين التونسيّين واختلاف تكوينهم العلمي والثقافي والأيديولوج...، فقد كانوا متجذّرين في محيطهم الوطني ومنفتحين على محيطهم الخارجي. كما تمكّن غالبيتهم من الانصهار ضمن الأجهزة العصريّة لدولة الاستقلال. ولم يكن هذا الاندماج بحثا عن مقابل أو بغاية تحقيق بعض "المغانم" والمنافع المادية الشخصيّة والمحافظة على مواقعهم في دولة الاستقلال، بدافع الحفاظ على وحدة وتماسك "الأمّة التونسية" وبناء البلاد وتطوير المجتمع والنهوض به.

٣/١-صعوبات ومنزلقات الكتابة التاريخيّة من طرف السياسيّين:

يواجه السياسيّون المهوسين بالتأريخ والكتابة التاريخيّة في جميع البلدان والمجتمعات عديد الصّعوبات التي لا يمكن لهم التخلّص منها، سواء قبل، أثناء أو بعد كتابتهم للتاريخ، ومن أبرز هذه الصّعوبات:

(٣/١) ١- "منزلقات" البيوغرافيا والسّيرة الذاتيّة:

تُعدّ كتابة السّيرة الذاتيّة نوعا من المخاطرة والمغامرة. فهي "رهان "Un Pari" صعب، بل "مقامرة" و"ورطة" كما وصفها "فرنسوا دوس "François Dosse"،[١٠] وسبب ذلك أنّ البيوغرافي لا يمكنه أن يمتلك مفتاح الشخصيّة التي يريد التأريخ لها والتعريف بها وتخليد اسمها وذكراها للأجيال القادمة. فعالم النفس ولو قضّى عشرين سنة في دراسة حالة ما، لن يمتلك أبدًا مفتاحها، والبيوغرافي أيضًا لا يمكنه الوصول إلى حقيقة الشخصيّة. لهذا نجد بيوغرافيات متعدّدة حول نفس الأشخاص، ليس لأنّ الأمر يتعلّق باكتشاف أرشيفات أخرى، وإنّما لوجود أسئلة وإشكاليّات جديدة قابلة للطّرح وفق اختلاف الرّؤى والمواقف والمقاربات بين الأشخاص حول مسألة أو قضيّة ما. وتزداد هذه الصعوبات تعقيدًا إذا ما كان كتّاب البيوغرافيات من السياسيّين مهما اختلفت جنسياتهم وتوجهاتهم السياسية. فالنتائج التي يتوصّل إليها السياسي تبقى بلا ريب غير نهائية ومفتوحة أمام دراسات المؤرخين وقابلة للإضافة والإثراء والنفي والتأكيد... ومن المستحيل الوصول إلى حقيقة وعمق الشخصية قيد الدرس وفكّ جميع رموزها وخفاياها لعديد الأسباب لعلّ أبرزها ذاتية وانحياز ونرجسية السياسيّين أثناء الكتابة بحكم انتمائهم لأيديولوجيا وأحزاب وعائلات سياسية بذاتها.

لذلك فإنّ غالبية كتابتهم تتضخّم فيها الذاتية والأنا والسقوط في استعراض بطولاتهم وإنجازاتهم وأدوارهم في صناعة بعض الأحداث التاريخيّة، مقابل التقليل من دور بعض الشخصيّات الأخرى من أحزاب وتنظيمات وانتماءات فكرية وأيديولوجية أخرى وتجاهل ذكر بعض الأحداث التي لم يشاوا فيها أو كانت لهم منها مواقف سلبية ومثيرة للجدل. وبذلك تصبح الكتابة البيوغرافية من طرف السياسيّين "مقامرة" وضربًا من ضروب الرّهان البيوغرافي الذي يُعَدّ كسبه أمرًا صعبًا، إن لم نقل يستحيل إدراكه، لكونه قد يصبح في نهاية المطاف "رهانًا خاسرًا" مثلما ذهب إلى ذلك مختصّ البيوغلرافيا "فرنسوا دوس "François Dosse".[١١]

(٣/١) ٢-قلّة استخدام السياسيّين للمصادر التاريخيّة وغيابها أحيانًا:

خلافًا للمؤرخين والباحثين المختصين، لا يستخدم السياسيّون عند كتابتهم وتأريخهم للفترتين الحديثة المعاصرة المصادر التاريخيّة من أرشيفات ووثائق أصلية بالأرشيفات العمومية والخاصة مراكز البحث والمكتبات الوطنية ومقالات ودراسات صادرة بالصّحف والدوريات...، سواء في تونس أو خارجها. فيكتفي غالبيتهم بالاقتصار على ذاكرتهم الشخصية وما يستقونه من معلومات وشهادات من أصدقاء لهم أو من مناضلي وكوادر الأحزاب والتنظيمات التي ينتمون إليها. وكما هو معلوم فإنّ

الشهادة الشفوية تبقى عرضة للتأويل والتفخيم والتقليل فتكون حصيلة كتابتهم غير موضوعية ومنقوصة عامة.

وفي المقابل وفي الوقت الذي يمكن للسياسيّين بالدول العربية ومن بينها تونس النفاذ إلى الأرصدة والملفات الشخصية بالأرشيفات العمومية بطرق مختلفة عبر علاقاتهم الشخصيّة ومناصبهم صلب الدولة والحزب فينتقون من الكرتونات والملفات والوثائق... ما "يلذّ ويطيب" لهم، فغنّ المؤرخين والباحثين العاديّين يصطدمون بسطوة القوانين المنظمة للأرشيف العمومي: قانون ١٠٠ سنة (الذي تمّ الحطّ فيه إلى مدة ٧٠ و ٦٠ سنة حسب البلدان) بالنسبة للأشخاص وقانون ٣٠ سنة بالنسبة للهياكل والجمعيّات والمنظمات. وفي غياب اطلاع السياسيّين على الأرشيفات والصّحافة والمادة الإخباريّة الخاصة بالفترة التي يؤرخون لها من إنتاج أدبي وفكري وسياسي وديني...، تبقى كتاباتهم منقوصة، بل قد تتحوّل إلى "مرآة مشوّهة"، من الضروري استغلال المادة الواردة بها بكل حذر من قبل الباحثين. وتبعًا لذلك فإنّ مقارعة المؤرخين والباحثين لكل ما يرد في كتابات السياسيّين بأنواع أخرى من المصادر والوثائق - إن أمكن ذلك بطبيعة الحال -، يصبح أمرًا لا مناص منه!

عمومًا يمكن القول في خاتمة هذا المدخل النظري - التاريخي، أنّ النخبة السياسية بالعالم العربي وبتونس تحديدا "ظاهرة" تاريخيّة قديمة جدا. كما أنّ السياسيّين التونسيّين مطلع الاستقلال رغم أنهم لم يكونوا متجانسي الانتماء الاجتماعي والتكوين الفكري والأيديولوجي والسياسي، فقد قدم غالبيتهم - باستثناء قلّة منهم - تضحيات ونضالات وكانت لهم مواقفهم وأدوار هامة في مقاومة الاستعمار الفرسني زمن الحماية. وهو معطى لا يجعلنا يمكننا من الحديث عن نخبة سياسية بتونس المستقلة في صيغة المفرد، بل عن "نُخَبٍ" سياسية في صيغة الجمع. وكما أشرنا إليه آنفا فإنّ حضور هؤلاء السياسيّين لم يقتصر منذ مطلع الاستقلال وإلى غاية ٢٠١١، على الحضور في الحقل السياسي واحتكار المناصب القيادية في أجهزة الحزب والإدارة والدولة...، بل بحكم كونهم كانوا فاعلين في التاريخ للعقود الثلاثة من الحكم البورقيبي وطيلة ٢٣ سنة من حكم بن علي، فقد تاقوا لكتابة تاريخهم وتاريخ تونس زمن وجودهم في حلبة التاريخ وسدّة الحكم. فما هي أسباب اهتمامهم بكتابة التاريخ، أهمّ كتاباتهم، أشكال وحصيلة الكتابات الصادرة عنهم؟

ثانيًا: السياسيّون يطرقون باب التاريخ: زمن الحكم البورقيبي (١٩٥٦-١٩٨٧)

١/٢- تاريخ يكتبه المُنتصرُون:[١٢]

(١/٢) ١- تغييب بورقيبة لخصومه من التاريخ الوطني:

إنّ المتأمّل في الخطب والمحاضرات والندوات...، المتصلة بتاريخ تونس المعاصر وبتاريخ الحركة الوطنية تحديدًا يلمس كثرتها وتواتر صدورها وتنظيمها بانتظام على امتداد العقود الثلاثة من الحكم البورقيبي.

منذ الاستقلال الداخلي اكتست خطب رئيس الحكومة الحبيب بورقيبة آنذاك ووزراءه حلّة تاريخية على وقع "فرحة الشعب" بعيد "النصر" وعودة المجاهد الأكبر مظفّرا من فرنسا إلى أرض الوطن يوم غرّة (جوان/ يونيو) ١٩٥٥ إثر اعتراف فرنسا بالاستقلال الداخلي لتونس وتوقيعها على الاتفاقيات الخاصة بذلك يوم ٠٣ (جوان/ يونيو) ١٩٥٥. وعلى إثر إلغاء النظام الملكي وإعلان النظام الجمهوري واعتلائه سدة الرئاسة ازداد نسق حضور التاريخ في الخطب الرسمية لبورقيبة ورجالات دولته من وزراء وكتاب دولة وولاة وكتّاب عامين للجان التنسيق الحزبي ومعتمدين...، ورؤساء منظمات وطنية...، أمام المواطنين في الاجتماعات والجولات الرسمية داخل البلاد لإحياء ذكرى الأحداث الوطنية[١٣]... أو بمناسبة الاجتماعات الدورية لكبار المسؤولين أمام إطارات الحزب والحكومة على الصعيدين الوطني والجهوي.

وفي جميع المنابر قدّم رجالات دولة الاستقلال قراءة آحادية الجانب لتاريخ تونس وللحركة الوطنية بإبراز دور الحزب الدستوري الجديد والمنظمات الوطنية الموالية وفي مقدمتها: الحزب الحرّ الدستوري القديم والحزب الشيوعي والاتحاد النقابي لعملة القطر التونسي "USTT" التابع له وجامعة عموم العملة التونسية الأولى (١٩٢٤-١٩٢٥) بقيادة محمّد علي الحامي وجامعة عموم العملة التونسية الثانية (١٩٣٦-١٩٣٩) بقيادة بلقاسم القناوي... ونتيجة لذلك تمّ تجاهل أدوار عديد المناضلين والمقاومين والنقابيّين والسياسيّين غير المنتمين للحزب الدستوري في النضال الوطني ضد الاستعمار من أجل التحرّر والانعتاق.

وكان في مقدمة المغبوطين والمغيّبين من تاريخ تونس المعاصر اليوسفيّون والشيوعيّون والزيتونيّون... بإقصائهم من المناصب والوظائف في الإدارة العمومية وأجهزة الدولة على الصعيدين المركزي والجهوي. ولا يعود هذا الإقصاء لمواقف الأحزاب والمنظمات والهياكل سالفة الذكر، بل لأسباب وخلافات شخصية في الغالب بين زعيم الحزب الحاكم وزعماء وقادة هذه المنظمات والهياكل وفي مقدمته خلاف بين بورقيبة وصالح بن يوسف وبين بورقيبة والزيتونيّين بسبب اصطفافهم إلى جانب شقّ الأمانة العامة منذ (سبتمبر/أيلول) ١٩٥٥.

(١/٢) ٢-تاريخ الحزب الدستوري الحاكم يصبح التاريخ الرسمي للبلاد:

لم يقتصر الأمر على تغييب الحزب الدستوري الحاكم لخصومه من الحياة العامة والساحة السياسية، بل تجاوزه لتنظيم عديد المحاكمات السياسية الكبرى ضدّ المعارضين للنظام من يوسفيّين (بين ١٩٥٦ و١٩٥٩) والقوميّين العروبيّين (في سنتي ١٩٦٧ و١٩٦٩) واليساريّين (في سنوات: ١٩٦٨ و١٩٧٢ و١٩٧٤) والنقابيّين في سنة ١٩٧٨.[١٤]

كما لم يكتف النظام الحاكم بالتشجيع على كتابة تاريخه من قبل "مؤرخيه" ومؤلفيه، بل قام بدعم كل هذه الإصدارات ماديا وأدبيا وتولى نشرها باللغتين (العربية والفرنسية) في الأسواق والمكتبات العمومية والمكتبات المدرسية والجامعية...، بل تمّ إقرار تدريس الحركة الوطنية في برامج المرحلتين الابتدائية والثانوية مع التركيز على دور الحزب الحرّ الدستوري الجديد

وزعمائه وعلى رأسهم الحبيب بورقيبة في "انبعاث" الحركة الوطنية وخروجها من السبات منذ سنة ١٩٣٤ (وهو تاريخ ميلاده بمدينة قصر هلال في ٠٢ مارس/آذار ١٩٣٤ وانشقاقه عن الحزب الحرّ الدستوري) ودور زعمائه في قيادة مسيرة النضال الوطني من سنة ١٩٣٤ إلى غاية الاستقلال التام للبلاد في ٢٠ مارس/آذار ١٩٥٦. كما تواصل المجهود التوثيقي الرسمي للحزب الدستوري الحاكم بعد الاستقلال بالتأريخ لعديد مؤتمراته بين ١٩٥٥ و١٩٨٦ والمحطات الوطنية الكبرى وفي مقدمتها معركة الجلاء عن قاعدة بنزرت في جويلية/يوليو ١٩٦١ التي أفضت إلى جلاء آخر جندي فرنسي عن قاعدة بنزرت في ١٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٦٣ والتأميم الزراعي في ١٢ ماي ١٩٦٤ وغيرها من المحطات التاريخيّة الأخرى.

ومن الصعب في اعتقادنا القيام بجرد لجميع العناوين المتصلة بالعمل الوطني بتونس زمن الحماية والمحطات الوطنية اللاحقة منذ الاستقلال والصادرة عن الحزب الدستوري الحاكم نظرا لكثرتها واقترانها بجميع المحطات والمناسبات الوطنية تقريبًا منذ انبعاثه سنة ١٩٣٤ إلى غاية سنة ١٩٦٤. لذا سنكتفي بذكر أبرزها وهي:

- وثائق١، بورقيبة (الحبيب)، **مقالات صحفيّة (١٩٢٩-١٩٣٤)**، دار العمل تونس ١٩٧٩، ٤٢٤ صفحة.
- وثائق ٢، **الدستور الجديد إزاء المحنة الأولى (١٩٣٤-١٩٣٦)**، دار العمل، تونس ١٩٧٩، ٢٨٧ صفحة.
- وثائق ٣، **الدستور الجديد والجبهة الشعبية بفرنسا (١٩٣٦-١٩٣٨): الحوار**، دار العمل، تونس ١٩٧٩، ٣٧٠ صفحة.
- وثائق ٤، **الدستور الجديد والجبهة الشعبية بفرنسا (١٩٣٦-١٩٣٨): القطيعة**، دار العمل تونس ١٩٨١، ٢٥٦ صفحة.
- وثائق ٥، **قضية بورقيبة، ٩ أفريل/أبريل ١٩٣٨**، دار العمل، تونس ١٩٨١، ٣٢٧ صفحة.

- *Histoire du mouvement national Tunisien*, Documents XII, Le Néo-Destour Face à la troisième épreuve 1952-1956, T 1: l'échec de la répression, Dar El Amal, Tunis 641 pages.
- *Histoire du mouvement national Tunisien*, documents XIX, Le Néo-Destour face à la Troisième épreuve, 1952-1956, T 2: la victoire, Dar El Amal, Tunis 1979, 669 pages.
- *Histoire du mouvement national Tunisien*, documents XX, Le Néo-Destour Face à la deuxième épreuve 1938-1943, dans l'engrenage de la deuxième guerre mondiale, C.D.N., Tunis 1980.
- *Historie du mouvement national tunisien, Pour Préparer la troisième épreuve, T 1: Le Néo-Destour brise le silence 1944/49*, C.D.N., Tunis 1972, 566 pages.

(١/٢) ٣-الرئيس بورقيبة يتحوّل إلى محاضر في تاريخ البلاد الحديث والمعاصر:

في مطلع السنة الجمعية ١٩٧٣-١٩٧٤ وتحديدا من ١٣ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣ إلى غاية ١٥ ديسمبر/كانون الأوّل ١٩٧٣ قام الرئيس الحبيب بورقيبة بإلقاء سلسلة من الدروس استعرض فيها بطريقته الخاصّة ومن وجهة نظره طبعًا إلى: نشأته، دراسته بتونس وبفرنسا، بداياته مع مهنة المحاماة والعمل الصّحفي والسياسي ومسيرته السياسية ونضالاته طيلة قرابة ربع قرن (بين ١٩٣٣ و١٩٥٦) بمختلف تفاصيلها وحيثياتها.

وقد تمّ طبع هذه المحاضرات في كتاب صدر باللغتين بعنوان: حياتي، آرائي، جهادي، خلال سنتي ١٩٧٧ و١٩٧٨. وقد تطرّق الرئيس الراحل في هذه المحاضرات وبطريقته الخاصّة ومن وجهة نظره بطبيعة الحال إلى: نشأته والبيئة التي عاش فيها، دراسته بتونس وبفرنسا، بداياته مع مهنة المحاماة والعمل الصّحفي وعالم السياسة ومسيرته السياسية ونضالاته طيلة قرابة ربع قرن (بين ١٩٣٣ و١٩٥٦) بمختلف تفاصيلها وحيثياتها... وقد تمّ طبع هذه المحاضرات أمام طلبة معهد الصّحافة وعلوم الأخبار كل يوم خميس وذلك بكلية الحقوق والعلوم السياسية بالمركّب الجامعي بتونس العاصمة. وقد حرص أن يستدعى لهذه المحاضرات أبرز الوجوه السياسية بالبلاد، بمن فيهم خصومه. وفي اختياره على طلبة معهد الصّحافة وعلوم الأخبار وعلى كلية الحقوق أكثر من دلالة لكونهم سيصبحون بعد مدة قصيرة من رجال الصحافة والإعلام الذين سيمسكون بمقاليد السلطة الرابعة.

أمّا بالنسبة لكلية الحقوق فهي المؤسّسة الجامعية التي يتخرّج منها القضاة والمحامين ورجال القانون ممّن سيمسكون بالسلطة القضائية[١٥]!

ولم يكتف بورقيبة في هذه الخطب باستعراض أهمّ أطوار تاريخه الخاص (بين ١٩٠٣ و١٩٧٣) وتاريخ تونس خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة والقيام ببعض الإشارات التاريخيّة حول الفترتين القديمة والوسيطة. ورغم عديد الجوانب الايجابية التي أتى عليها في مضمون محاضراته وفي مقدمتها: السيرورة التاريخيّة للبلاد التونسية منذ القديم إلى النصف الثاني من القرن العشرين، تأكيده على مفهومي الشخصية والهوية التونسية، مفهوم الكيان التونسي، الأمّة التونسية، الترابط بين أجيال المصلحين ورجالات الإصلاح والوطنيّين "الخلّص" في تاريخ تونس الحديث والمعاصر، بدءًا بخير الدين باشا، مرورا بالبشير صفر رائد الحركة الشباب التونسي ومحمّد علي الحامي رائد الحركة النقبية وخلفه الزعيم الشهيد فرحات حشّاد، وصولا إلى شخصه ورفاقه صلب الحزب الدستوري...، إلاّ أنه قد هاجم في بعض المحاضرات الكثير من الرموز الوطنية، لا سيّما خصومه، الأحياء منهم والأموات وذلك بمحضر البعض منهم بمن في ذلك رفقاء دربه من مؤسّسي الحزب الدستوري الجديد. ويأتي في مقدمة هؤلاء: الشيخ عبد العزيز الثعالبي والطاهر صفر ومحمود الماطري والشاذلي الخلادي.... ولم يسلم منه حتى شقيقه محمّد بورقيبة الذي عاب عليه ضعفه في المنفى في أقصى الصحراء التونسية بين ١٩٣٤ و ١٩٣٦ وتوجيهه رسالة إلى المقيم العام "مارسال بيروطون" دون علم

المجموعة تمّ على إثرها إطلاق سراحه. وكذلك الشأن بالنسبة للأستاذة الطاهر صفر وحسونة العياشي والبحري قيقة نتيجة ضعفهم عند الإدلاء بشهاداتهم أمام قاضي التحقيق العسكري، "دي قيران دي كايلا" De Guérin De Cayla بعد أحداث ٠٩ أفريل/أبريل ١٩٣٨.[١٦] وغيرها من الاتهامات التي هزّت صورة هؤلاء الزعماء وشوّهت تاريخهم ونضالاتهم زمن الاستعمار وأثرت فيهم أيما تأثير نظرا لبثها بالإذاعة والتلفزة.

وعلى سبيل الذكر لا الحصر وفي سياق حديثه عن الشيخ عبد العزيز الثعالبي قال: "(...) إنّه صنيعة فرنسا، ضرورة أنها استجلبته من الخارج إلى تونس لغاية معيّنة (...)"[١٧]. وكان في خطاب له في أواخر سنة ١٩٥٥ قد استهزأ منه ووصفه بـ "المثليّ"[١٨]!

وفي المحاضرة الأخيرة وصف حملة الاعتقالات التي طالت اليساريّين الذين أحيلوا على محكمة أمن الدولة في (أوت/أغسطس) ١٩٧٤ بـ "الجراثيم" وغيرها من الأمثلة. كما اعترف علنا في إحدى محاضراته حول تاريخ تونس بتدبير اغتيال خصمه الزعيم صالح بن يوسف ذات يوم ١١ أوت/أغسطس ١٩٦١ بمدينة فرنكفورت بألمانيا بقوله: "(...) وهكذا تخلّصت تونس من تلك الحيّة الرقطاء (...)".[١٩] وعندما تحدّث عن خير الدين التونسي قال عنه: "(...) وقرّر أن يهاجر إلى تركيا لأنه تركي الأصل والرجوع إلى الأصل يتم بأدنى سبب، وقبل أن يسافر باع أرزاقه ومنها هنشير أولاد سعيد الذي باعه إلى شركة فرنسية. ومن هنا يتضح أن هؤلاء الناس مهما كانوا مصلحين فإنه لم تكن لهم روابط حقيقية بالأرض التونسية (...)".[٢٠] وفي حديثه عن عبد الكريم الخطابي فقال: "(...) وقلت في نفسي عندما شاهدته واجتمعت به أهذا هو الذي هز عواطفنا وأثار رحماسنا عندما كنا شبابا، إذ هو لم يظهر لنا إلا بمظهر بعيد جدا عما كنا نتصوره. وتبين لنا أن الرجل بسيط وتصريحاته للصحافة وغيرها لم تكن إلاّ من قبيل الكلام الأجوف (...)".[٢١] وغيرها من المواقف "الصادمة" لبورقيبة من بعض الرموز الوطنية الذين لم يتوان عن وصفهم بالضعف والتواطئ وحتى الخيانة في بعض "اللحظات التاريخيّة الفارقة" من تاريخ البلاد.

وفي محصّلة محاضراته التاريخيّة قدّم بورقيبة نفسه للعموم بمثابة الشخص صاحب المواقف الراجحة والمناضل الدؤوب الذي لا يضعف ولا يستسلم ولا يعرف الانكسار رغم عديد المضايقات والمحن التي تعرّض لها من قبل المستعمر وخصومه السياسيّين من طرد وإقصاء ومحاكمات وسجون ومنافي...، داخل تونس وخارجها. فكان "منقذ" البلاد والأمّة التونسية من التلاشي والزوال و" يوغرطة[٢٢] الذي انتصر"، في حين فشل هذا القائد النوميدي ومن بعده القائد القرطاجي حنبعل[٢٣] في حروبهما ضد الرومان. ويرى أحد الباحثين أنّ كل هذه الصفات والتضحيات التي رافقت مسيرة بورقيبة لا تتوفّر إلاّ لدى الأنبياء والرسل[٢٤]!

وقد تمّ جمع وتفريغ وتبويب وفهرست وترجمة هذه المحاضرات إلى اللغة الفرنسية لتصدر أخيرا في كتاب بعنوان: "الحبيب بورقيبة، حياتي آرائي، جهادي "(باللغة عربية) و" Ma vie, mes idées, mon combat "(باللغة الفرنسية)، صدرا عن كتابة الدولة للإعلام في طبعتين: طبعة أولى سنة ١٩٧٧ وطبعة ثانية سنة ١٩٨٣. وسرعان ما أصبح هذا المؤلَّف المرجع الرئيس، إن لم نقل الوحيد في تاريخ بورقيبة ونضالاته ومواقفه بصفة خاصة وتاريخ الحزب الدستوري الحاكم والحركة الوطنية التونسية عمومًا. وإجمالاً مثلت هذه المحاضرات محطة هامة في مأسَسَةِ تاريخ تونس المعاصر وتحديدا تاريخ الحركة الوطنية من قبل الحزب الحاكم ومن طرف أعلى شخصية في هرم الدولة.

٢/٢- الساسة يكتبون تاريخ تونس بأنفسهم:

لا يتسع المجال لذكر جميع الإصدارات المتصلة بتاريخ تونس التي صدر البعض منها قبل الاستقلال. لذا سنكتفي بذكر أبرزها وتحديدا تلك الصادرة عن رموز الحركة الوطنية التونسية. وهي مؤلفات سابقة لمستقل تونس يعود صدورها إلى الفترة الاستعمارية، نذكر من بينها بالخصوص العناوين الرئيسة وهي:

- جماعي (رغم كونه يُنسب للشيخ عبد العزيز الثعالبي)، **تونس الشهيدة**، باريس ١٩٢٠، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الاسلامي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٨، ٣٩١ صفحة. وقد صدر لأول مرة باللغة الفرنسية بعنوان:

La Tunisie martyre: *ses revendications*. Front Cover. Jouve, Janvier 1920, Paris, 212 pages.

- الحبيب ثامر، **هذه تونس**، القاهرة، ١٩٤٨.

- علي البلهوان، **نحن أمّة**، تونس ١٩٤٨.

- علي البلهوان، **تونس الثائرة**، القاهرة ١٩٥٤.

- Habib Bourguiba, La Tunisie et la France. Vingt cinq ans de lutte pour une coopération libre, Éditions P. Julliard, Paris 1954, 462 pages.

وقد تمّ تعريب هذا المؤلَّف ليصدر في تونس بعنوان:

- الحبيب بورقيبة، بين تونس وفرنسا كفاح مرير طيلة ربع قرن في سبيل التعاون الحرّ، باريس ١٩٥٤.

وبعد استقلال البلاد تنامت وتيرة إصدار هذه المؤلفات التاريخيّة للشقّ المنتصر من الفاعلين التاريخيّين زمن الاستعمار وفي مقدمتها مؤلفات الحاكم الجديد، الرئيس الحبيب بورقيبة ورفاقه في النضال.

كما كلف المسؤولون في جهازي الدولة والحزب عددًا من المؤرّخين والباحثين بالجامعة التونسية بكتابة تاريخ تونس للفترات الأربعة تمّ طبعها ونشرها على مراحل (بين ١٩٦٨ و١٩٨٣) في مؤلفات مختصّة أصبحت المراجع الرسمية، إن لم نقل الوحيدة المعتمدة في تاريخ تونس. وهي حسب التسلسل الزمني:

- Collectif (Hédi Slim & Ammar Mahjoubi & Khale d Belkhoja & Abdelmajid Ennabli), Histoire générale de la Tunisie: Tome 1: L'Antiquité, Tunis, S.T.D., 1968, 408 pages.
- Collectif (Hichem Djait & Mohamed Talbi & Farhat Dachraoui), Histoire générale de la Tunisie: Tome 2: Le moyen âge, Tunis, S.T.D., 1965, 408 pages.
- Collectif (Ezzdine Guellouz & Abdelkader Masmoudi, Mongi Smida), Histoire générale de La Tunisie, Tome 3: Les Temps modernes, Société Tunisienne de Diffusion, Tunis 1983, 438 pages.
- Ahmed Kassab, Histoire générale de la Tunisie, Tome 4: L'Epoque contemporaine, STD, Tunis 1976, 505 pages.

٣/٢- الفاعلون التاريخيّون يكتبون تاريخهم بأنفسهم:

كفاعلين تاريخيّين لم يكتف رجال السياسة بكتابة التاريخ الرسمي للبلاد منذ بداية الفترة الاستعمارية إلى غاية فترة حكم بورقيبة، بل انتقلوا لكتابة تاريخهم الشخصي في ظروف ودوافع وأشكال مختلفة. وتأتي في مقدمة إصداراتهم المذكرات والسير الذاتية واليوميات...، التي صدرت في سنوات متباعدة منذ مطلع الاستقلال وسنة ١٩٦٠ تحديدًا إلى غاية سنة ١٩٨٤. وقد بلغ عدد المذكرات والسير الذاتية الصادرة عن هؤلاء الفاعلين خلال فترة حكم بورقيبة باللغتين العربية والفرنسية، ١٠ إصدارات (٠٥ منها باللغة العربية و٠٥ باللغة الفرنسية) لثمانية (٠٨) مناضلين من أجيال مختلفة.

وتُعَدّ هذه الإصدارات قليلة مقارنة بعدد المناضلين من مختلف الاتجاهات السياسية والايديولوجية. ولم تكن باكورة هذه الإصدارات لرئيس الجمهورية و"المجاهد الأكبر" الحبيب بورقيبة كما كان يُنعت، بل لرفيق دربه الأستاذ الطاهر صفر الذي لم ينعم باستقلال بلاده نتيجة وفاته إبّان الحرب العالمية الثانية نتيجة مرض. ولم يُدْلِ الرئيس بورقيبة بدلوه في الحقل التاريخي إلا بعد ١٧ من وصوله إلى سدة الحكم عبر سلسلة المحاضرات التي ألقاها أمام طلبة معهد الصحافة وعلوم الأخبار بالعاصمة بين ١٣ أكتوبر/تشرين الأول و١٥ ديسمبر/كانون الأوّل ١٩٧٣ كما أسلفنا ذكره.

وفيما يلي القائمة الكاملة لجميع العناوين الصادرة خلال فترة الحكم البورقيبي موزّعة بين اللغتين ومرتّبة ترتيبا كرونلوجيّا حسب تاريخ صدورها:

جدول (١)

المذكّرات والسّير الذاتية الصادرة باللغة العربية قبل سنة ١٩٨٧

(مرتّبة ترتيبا كرونولوجيّا حسب تاريخ صدورها)

باللّغة العربية:

الشخصية السياسية	عنوان المذكّرات أو الكتاب	دار النشر/ تاريخ ومكان الصدور/ عدد الصفحات/ التقديم...
١. الحبيب بورقيبة	حياتي، آرائي، جهادي	**كتابة الدولة للإعلام، تونس ١٩٧٨، ٢٤٦ صفحة.**
٢. إبراهيم طوبال	البديل الثوري بتونس	**دار الكلمة، بيروت ١٩٧٩.**
٣. الرشيد إدريس	من باب سويقة إلى منهاتن	**دار بن عبد الله للنشر، تونس ١٩٨٠.**
٤. الرشيد إدريس	ذكريات عن مكتب المغرب العربي بالقاهرة	**الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٨١.**
٥. الرشيد إدريس	**من جاكرتا إلى قرطاج**	**الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٨٣.**

باللّغة الفرنسية:

Noms et prénoms	Intitulés	Editions, dates et lieux, nombre de pages, préfaces…
6. Tahar Sfar	Journal d'un exilé	**Editions Bouslama, Tunis 1960, 100 pages.**
7. Mohamed Salah Mzali	Au fil de ma vie: Souvenirs d'un Tunisien	**Collection Léon L'Africain, Editions Hassen Mzali, Tunis 1972, 380 pages.**
8. Ahmed Ben Salah	Marc Nerfin, Entretiens avec Ahmed Ben Salah sur la dynamique socialiste en Tunisie dans les années soixante	**Editions François Maspero, (Cahiers Libres 276-277) Paris, 1974, 186 pages.**
9. Habib Bourguiba	Ma vie, mes idées, mon combat	**Publications du Secrétariat d'Etat à l'Information, 1977, 355 pages.**
10. Mohamed Mzali	L'action de la parole	**Conversation avec Xavière Ulysse, Publisud, Paris 1984, 281 pages.**

٤/٢- المعارضون المغتربون يُدلون بدلوهم في كتابة التاريخ:

رغم خروج غالبيتهم من البلاد قسريًا أو طواعية، فإنّ استقرارهم بالمهجر لم يمنعهم من أن يدلوا بدلوهم في تاريخ تونس المعاصر دون أن تكون لهم كلمة الفصل في المسألة. ومن مواقعهم قدموا رؤى جديدة لتاريخ تونس والحركة الوطنية. من الصعب الاتيان على جميع إصدارات الفاعلين في تاريخ تونس المقيمين بالخارج، سواء بالمشرق أو بالمغرب أو بأوروبا نظرًا لكثرتهم. لذا سنتخذ مثالاً واحدًا على هؤلاء نظرًا لطرافته وتحوله إلى مرجع في تاريخ تونس من طرف العقيد معمّر القذافي ذات ١٧ فيفري من سنة ١٩٩٠ وهو المناضل القومي الطاهر عبد الله[٢٥] الذي أصدر:

- **الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة**، مكتبة الجماهير بيروت، ١٩٧٦. وفي سنة ١٩٩٠ صدر بتونس عن دار المعارف للطباعة، سوسة – تونس، ٢٥٤ صفحة. وقد قدّم هذا الإصدار قراءة قومية محضة للحركة الوطنية ونضالات التونسيّين في المجال السياسي والنقابي والثقافي إلى درجة استشهاد القائد الراحل معمّر القذافي بمقتطفات منه بمجلس النواب بباردو في إحدى زيارته لتونس حول إعدام السلطات الفرنسية للمقاومين التونسيّين للاحتلال الفرنسي في أعقاب الحملة العسكرية على تونس سنة ١٨٨١. وهم تحديدا: سعد قم البناني الذي أعدم بالساحة العمومية بالقيروان في خريف ١٨٨١ بعد دخول جيش الاحتلال المدينة المقدسة يوم ٢٦ أكتوبر/تشرين الأول ١٨٨١[٢٦].

يضاف إليها عديد الفصول من إصدارات كل من الحبيب المولهي... من اليوسفيّين والقوميّين العروبيّين المهاجرين خارج أرض الوطن أو المغبوطين داخله. كما ظهرت بعض الإصدارات مؤخرا بعد ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١ من أبرزها مذكرات المقاوم علي الزليطني[٢٧] التي قام بتحقيقها وإصدارها شقيق المناضل الإعلامي بالإذاعة التونسية محمّد حفظي الزليطني ثمّ ابنته فوزيّة الزليطني بعد وفاة والدها.[٢٨] وتجنّبا للتكرار سنرجئ الخوض في تفاصيل هذه الإصدارات عند حديثنا عن مثيلاتها الصادرة زمن حكم بن علي وتحديدًا بداية من سنة ١٩٨٨. وعمومًا يمكن القول أنّ العقود الثلاثة من الحكم البورقيبي قد أسّست لقيام جنس من الكتابة التاريخيّة خاصّ بالفاعلين السياسيّين في تاريخ تونس المعاصر متصل بتاريخ تونس زمن الاستعمار ثمّ بدولة الاستقلال، رغم عديد المآخذ على مستوى شكل وخاصّة المضمون. فهل سيتواصل هذا الجنس من الكتابة التاريخيّة زمن حكم بن علي أو الحقبة النوفمبرية؟

ثالثًا: الفاعلون السياسيّون والكتابة التاريخيّة زمن حكم بن علي (١٩٨٧-٢٠١١): من التحرّر من قيود النظام البورقيبي إلى إكراهات النظام الجديد:

رغم افتقاد رجل التغيير لرصيد نضالي -تاريخي وضعف مستواه الثقافي بحكم تكوينه العسكري، فإنّ ما يلفت الانتباه خلال فترة حكم الجنرال بن علي هو حرصه الشديد على إعادة كتابة تاريخ تونس المعاصر وخوفه من التاريخ والمؤرّخين. ويظهر ذلك من خلال عدة مؤشرات من أهمها:

١/٣- بحث يائس لبن علي عن شرعيّة تاريخية ورصيد نضالي له ولأسرته

لم تكن لرجل التغيير سيرة ذاتية مشرّفة ورصيد نضاليّ وطني له ولعائلته تضاهي نضالات وتضحيات الزعيم الحبيب بورقيبة ورفاقه من رموز الحزب الحرّ الدستوري والأحزاب والمنظمات الأخرى كالحزب الشيوعي والاتحاد العام التونسي للشغل...، لذلك ومنذ الأسابيع الأولى لوصوله إلى الحكم عقب "الانقلاب الطبي" الذي قاده فجر يوم ٠٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٧ ضد رئيسه، وبعد تركيز أسس نظامه الجديد الذي وسمه بـ "العهد

الجديد" أو "التحوّل المبارك"، رام زين العابدين بن علي البحث عن محطّة نضاليّة - ولو عرضيّة - في مسيرته المهنية وفي تاريخ عائلته المرتبط بالتواطؤ مع سلطات الاستعمار الفرنسي. التجأ إلى "تزييف التاريخ" والاستيلاء على بعض الوثائق والملفات الخاصّة به وبعائلته.

ومن جهة أخرى عمل بعض الإعلاميّين المتزلّفين على صياغة بيوغرافيا رسمية للرئيس الجديد بعيدة كل البعد عن الواقع بإدراج أحداث تاريخية من نسج خيالهم. فبمناسبة الذكرى الثلاثين للعدوان العسكري الفرنسي- على قرية ساقية سيدي يوسف،[٢٩] جاء في الشريط الوثائقي الذي أعدته وبثته مؤسّسة الإذاعة والتلفزة الوطنية يوم ٠٨ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٨ أنّ " فخامة الرئيس زين العابدين بن علي لمّا كان ضابطا مبتدئا بثكنة الكاف (الحدودية مع الجزائر) أصيب برصاصة من الجيش الفرنسي- على مستوى كعب رجله اليسرى أثناء مشاركته في التصدّي للعدوان العسكري الفرنسي على قرية الساقية، أفقدته القدرة على المشي، الأمر الذي استوجب خضوعه للعلاج لفترة طويلة "[٣٠] !

لكن غاب عن مسؤولي وسائل الإعلام الرسمية أو بالأحرى "تناسوا" أنّ العدوان على قرية ساقية سيدي يوسف كان عدوانًا جويًا باستخدام (٢٥) طائرة عسكرية أمريكية الصنع من صنف: "A- 26" و"Corsair" و"Mistral" وأنّ جيش البرّ الفرنسي- لم يشارك يومها في العملية ولم تطأ قواته التراب التونسي- بالمرّة. وكأنهم بذلك يبحثون عن "محطّة نضالية" للرئيس الجديد لإعطائه القليل من "الشرعية" أو "الاستحقاق التاريخي" الذي لم يتسنّ له ولعائلته[٣١] شرف اكتسابه مقارنة بالرئيس السابق بورقيبة وجلّ أفراد النخبة السياسية الحاكمة ممّن عملوا معه منذ استقلال البلاد !

٢/٣- "حمّى" الإصدارات التاريخيّة الثأرية لمعارضي النظام البورقيبي

إحقاقًا للحقّ ومنذ بدايات حكمه وتحديدا منذ مطلع سنة ١٩٨٨، سمح بن علي بنشر وإصدار جميع النصوص "المصادرة" من قبل لجنة الرقابة، بما في ذلك الكتب والدراسات والمقالات التاريخيّة التي تناولت مسيرة ونضالات المغيّبين في تاريخ تونس من: يوسفيّين وقوميّين عروبيّين ويساريّين...، بمختلف انتماءاتهم الاجتماعية ومواقعهم، سواء داخل البلاد أو خارجها. وفي نفس السياق سمح للكثير من المعارضين الذين صدرت في حقهم أحكامًا غيابية بالسجن من قبل محكمة القضاء العليا والمحكمة العسكرية ومحكمة أمن الدولة...، بالعودة إلى أرض الوطن بعد عقود من الاغتراب. ونذكر من بين هؤلاء رموز الحركة اليوسفية وفي مقدمتهم: المناضِلَيْنِ حسين التريكي[٣٢] وعبد العزيز شوشان.[٣٣]

ولم يعترض بن علي على دفن المناضل اليوسفي العروبي إبراهيم طوبال[٣٤] في صيف ١٩٩٠ بمسقط رأسه بمدينة المهديّة إثر وفاته بجنيف بعد رحلة طويلة بين طرابلس الغرب والقاهرة والجزائر العاصمة، انطلقت منذ سنة ١٩٥٥. بل كلّف أحد المسؤولين بالمهدية لتقديم التعازي لأفراد عائلته، إضافة إلى تأمين مراسم الدفن أمنيا وتنظيميا.[٣٥] كما سمحت السلطات لعديد الجمعيات والمنظمات والشخصيات المستقلة بتنظيم عديد الندوات والمنابر الفكرية الحرّة بدور الثقافة والمقرّات الرسمية التي دعت إلى مراجعة تاريخ الحركة الوطنية التونسية. ونتيجة لهذه "اللفتة الكريمة" لتاريخ تونس ورموزه من طرف أعلى هرم السلطة بالبلاد، سجّلنا منذ مطلع سنة ١٩٨٨ زخمًا من الكتابات التاريخيّة حول تاريخ الحركة الوطنية والنقابية نادى أصحابها بضرورة إنصاف عديد الوجوه التي تمّ تغييبها في برامج التاريخ الرسمي بالمدارس الابتدائية والمعاهد الثانوية وردّ الاعتبار إليهم بإسناد شوارع وساحات عمومية ومتاحف تحمل أسمائهم وإقامة نصب تذكارية تخليدًا لنضالات بعض المقاومين والمناضلين ضد المستعمر الفرنسي ثمّ ضد حكومة الاستقلال وجلب رفاة من توفوا منهم في بلدان صديقة إثر مغادرتهم قسريًا أرض الوطن للاستقرار بها منذ سنة ١٩٥٥.

كما تحرّرت أفواه الكثير من المناضلين والمقاومين والنقابيّين المغيّبين في تونس حيث تحوّل الصحفيّون ومراسلو عديد الصّحف بالجهات لمحاورة البعض منهم حول أحداث ووقائع ومعارك وتنظيمات...، جدّت ورأت النور زمن الاستعمار أو بعد الاستقلال. كما تمّ استدعاء البعض الآخر منهم إلى الاذاعات والتلفزة الوطنية لتوضيح بعض الجوانب الغامضة من تاريخ تونس المعاصر أو تصويب بعض المغالطات في الكتابات التاريخيّة منذ الاستقلال. ونذكر في مقدمة هؤلاء كل من: المقاومين اليوسفيّين، القوميّين العروبيّين، المورّطين في المحاولة الانقلابية لشهر ديسمبر/كانون الأوّل ١٩٦٢ المعروفة باسم "محاولة لزهر الشرايطي"، رموز اليسار التونسي- (من مجموعة "برسبكتيف" والعامل التونسي، النقابيّين الذين حوكموا إثر الاضراب العام ليوم ٢٦ جانفي/يناير ١٩٧٨ وبعض الاسلاميّين الذين عرفوا الايقاف والتعذيب والسجون والمنافي... كما شمل رد الاعتبار كذلك بعض أفراد العائلة الحسينيّة من أبناء وأحفاد وأصهار آخر ملوك تونس، حسين بن علي الذي تمّت إزاحته عن الملك لإثر إعلان النظام الجمهوري يوم ٢٥ جويلية/يوليو ١٩٥٧.

وقد أحصينا بين مطلع سنة ١٩٨٨ و٢٠١٠ من العناوين الصادرة عن المناضلين والمقاومين والنقابيّين المعارضين لبورقيبة بين ١٩٥٥ و١٩٨٧، ٤٠ عنوانا (٢٤ منها باللغة العربية و ١٦ باللغة الفرنسية)، صدر جميعها بتونس عن مناضلين وفاعلين سياسيّين وتنظيمات سياسية وايديولوجية ونقابية مختلفة، بدءا باليوسفيّين مرورا باليساريّين أو حتى الدستوريّين أنفسهم ممّن عملوا مع بورقيبة منذ مطلع الاستقلال قبل أن يتمّ استبعادهم لاحقًا لعدة أسباب من جهازي الحزب والدولة. ويكفي أن نلقي نظرة على قائمة هذه الإصدارات الموجودة أسفل هذا لنتبيّن "تحرّر" الأقلام من كل أشكال الرقابة الذاتية والرقابة الإدارية الرسمية. ومن الصعب في اعتقادنا تعداد جميع العناوين الصادرة عن أفراد النخبة السياسية منذ مطلع فترة حكم بن علي إلى غاية نهايته نظرا لكثرتها وتعدّد أشكالها، لكن الثابت أنّ إصدارها كان بغاية رد الاعتبار للفاعلين في تاريخ تونس المعاصر من طرفهم والتخلص من "حمل ثقيل" لازمهم وأسرار وتفاصيل تاريخية ظلّت جاثمة على صدورهم لعقود:

جدول (٢) المذكّرات والسّير الذاتية الصادرة عن السياسيّين بعد سنة ١٩٨٧:
(مرتّبة ترتيبا كرونولوجيّا حسب تاريخ صدورها)

باللغة العربية:

الشخصية السياسية	عنوان المذكّرات أو الكتاب	دار النشر/ تاريخ ومكان الصدور/ عدد الصفحات/ التقديم...
١. محمّد الحبيب المولّهي	الوطن والصمود	**دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١، ٥١٢ صفحة.**
٢. النوري البودالي	الحق والحقيقة: غاية وواجب	**مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس ١٩٩١.**
٣. الحبيب نويرة	ذكريات عصفت بي	**سراس للنشر، تونس ١٩٩٢، ٣٣٣ صفحة.**
٤. الحبيب نويرة	يوميّات ديبلوماسي في الوطن العربي	**مؤسّسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس ١٩٩٢.**
٥. يوسف الرويسي	كتابات ومذكّرات المناضل يوسف الرويسي السياسية مع وثائق جديدة تنشر لأول مرة	**إعداد وجمع وتقديم الأستاذ عبد الجليل التميمي، مؤسسة التميمي للنشر، زغوان ١٩٩٥، ٢٩٣ صفحة.**
٦. البشير بوعلي (١٩٢٢-١٩٩٨)	ذكريات مناضل وطني	**تقديم جلّولي فارس، ميدياكوم، تونس ١٩٩٦، ٣٠١ صفحة.**
٧. الحبيب ڤرار	لتحيا تونس	**مطبعة بوسلامة، تونس ١٩٩٦، ٢٥٠ صفحة.**
٨. بلحسن الجريري	شاهد على إسهام جربة في الحركة الوطنية	**شركة فنون الرسم للنشر والصحافة، تونس ١٩٩٨، ١٢٧ صفحة.**
٩. محمّد الفريخة	مناضل شاهد على عصره	**تونس ١٩٩٨، ١٨٤ صفحة.**
١٠. طاهر باشا خير الدين (١٨٧٥-١٩٣٧)	خواطر ومذكّرات[٣٦]	**تقديم وتحقيق حمادي الساحلي، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس ١٩٩٨، ١١١ صفحة.**
١١. بلقاسم القناوي	مذكّرات نقابي وطني	**منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تحقيق فريد بن سليمان تقديم علي المحجوبي، منوبة ١٩٩٨، ١٥٦ صفحة.**
١٢. محمود الفريخة	مناضل شاهد على عصره	**تونس ١٩٩٨.**
١٣. الرشيد إدريس	في طريق الجمهورية	**دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠١، ٥٥٦ صفحة.**
١٤.حامد الزغل	جيل الثورة: ذكريات مناضل	**سراس للنشر، تونس ٢٠٠١، ٦٢٧ صفحة.**
١٥. الحبيب نويرة	مراسلات وإرساليات: ١٩٤٢ - ١٩٩٧	**طبعة محلية، تقديم حمّادي الساحلي، تونس، ٢٠٠٢.**
١٦. عبد المجيد شاكر	الهادي شاكر: جهاد واستشهاد مذكّرات	**التعاضدية العمّالية للطباعة والنشر، صفاقس ٢٠٠٣، ٣٥٠ صفحة.**
١٧. الحبيب المنكبي	في ذاكرة مناضل	**تقديم مروان بن العربي، عبد العزيز بلطيف، طه زين العابدين، تونس ٢٠٠٣، ١٨٠ صفحة.**
١٨. محمّد بن سعيد	مسيرة نضالية: وقائع وحقائق عن معارك التحرير بقليبية والجنوب التونسي 1956 - 1947	**تونس ٢٠٠٥، ١٤٣ صفحة.**
١٩. محمود شمّام	من وحي الذاكرة: عن الزيتونة... وعن علاقة بورقيبة بالقضاء...	**مطبعة ميقا ٢٠٠٠، الطبعة الأولى، تونس ٢٠٠٥، ١٢٦ صفحة.**
٢٠. علي المعاوي	ذكريات وخواطر	**المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، منوبة ٢٠٠٧، ٧٩٩ صفحة.**
٢١. الحبيب نويرة	سنوات المحنة والكفاح ١٩٢٥-١٩٦٥: من خلال رسائل أصحابها، تحقيق وتعليق أحدهم الحبيب نويرة، جزءان: الجزء ١: من	**دار تونس للنشر، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس ٢٠٠٧: ج ١: ٤٢٠ صفحة، ج٢: ٤٧٤ صفحة.**

الشخصية السياسية	عنوان المذكّرات أو الكتاب	دار النشر/ تاريخ ومكان الصدور/ عدد الصفحات/ التقديم...
	الرسالة رقم ١ بتاريخ ١٩٢٥/٠٦/٢٠ إلى الرسالة رقم ٢٦٧ بتاريخ ١٩٤١/٠٦/٣٠. الجزء ٢: من الرسالة رقم ٢٦٨ بتاريخ ٥ جويلية/يوليو ١٩٤١ إلى الرسالة رقم ٤٩٩ بتاريخ ١ مارس/آذار ١٩٦٥.	
٢٢. محمّد مزالي	نصيبي من الحقيقة	**دار الشروق، القاهرة، أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٧، ٦٠٠ صفحة.**
٢٣. الطيّب شواري	ما عملت ورأيت وسمعت: ذكرياتي عن دور القلعة الكبرى في تحرير الوطن	**المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، منوبة ٢٠٠٨، ٥٥٥ صفحة.**
٢٤. أحمد بن صالح	**مذكّرات سياسي في «الشروق»**	**حوار وإعداد فاطمة بن عبد الله الكرّاي، جريدة «"الشروق» التونسية، الحلقة ٢١٣ ليوم الخميس ٢٥ مارس/آذار ٢٠١٠ (سلسلة متواصلة).**

باللغة الفرنسية:

25. Mohamed Ben Salem	L'antichambre de l'indépendance	*Cérès productions, Tunis 1988, 253 pages.*
26. Mohamed Ben Salem	Médecin du néant	*Société Tunisienne de diffusion, Tunis 1989, 103 pages.*
27. Haj Mohamed Gaaloul	Mémoires d'un militant syndicaliste et politique	*Impr. Dar Al-Arab, Tunis, 1989, 90 pages.*
28. Slimane Ben Slimane (1905-1986)	Souvenirs politiques	*Cérès Productions, Tunis, 1989, 304 pages.*
29. Habib Achour	Ma vie politique et syndicale. Enthousiasme et déceptions 1944-1981	*Editions Alif, Tome 1, Tunis, 1989, 396 pages.*
30. Ezzeddine Chérif	Mémoires d'un beldi, Propos recueillis et présentés par Khadija Mahmoud Chérif	*Cérès Productions, 1990, 215 pages.*
31. Mahmoud El Materi	Itinéraire d'un militant (1926-1944), Préface de Azzedine Guellouz	*Cérès Productions, Tunis, 1992.*
32. Collectif	Mémoire de femmes, Tunisiennes dans la vie publique 1920 – 1960 (13 témoignages : 6 en langue arabe et 7 en langue française)	*Coordonné et introduit par Habib Kazdaghli, Publication conjointe du CREDIF et de l'I.S.H.M.N.T. avec le concours du fonds « Souad Al-Sabah », Editions Media Com- Collection Mémoires, Tunis, 1993, texte bilingue (229 pages en langue arabe et 128 pages en langue française).*
33. Radhia Haddad	Parole de femme	*Editions Elyssa, Tunis, janvier 1995, 253 pages.*

34. Ezzeddine Azzouz	L'Histoire ne pardonne pas, Tunisie (1938-1969)	*Paris, l'Harmattan & Tunis, Dar Achraf 1988, 270 pages.*
35. Béhi Ladhgham	Correspondance 1952-1955: Les années décisives, présenté et annoté par Raouf Hamza	*Cérès Productions, Tunis 1990, 354 pages en langue française et 86 pages en langue arabe.*
36. Tahar Belkhodja	Les trois décennies Bourguiba	*Arcantères, Collection : Les témoins de l'histoire, Paris 1998, 286 pages.*
37. Chédly Kélibi	Orient-Occident - la paix violente[37], Entretien avec Geneviève Moll	*Editions Sand, Collection Aujourd'hui Et Demain, Paris, 24/03/1999, 429 pages.*
38. Mohamed Mzali	Un premier ministre de Bourguiba témoigne	*Editions Jean Picollec, Paris, 2004, 693 pages.*
39. Ahmed Ben Salah	Noura Borsali, Livre d'entretiens avec Ahmed Ben Salah	*Tunis, 2008, 236 pages.*
40. Béji Caïd Essebsi	Le bon grain et l'ivraie	*Sud Editions, Tunis le 7 Avril 2009, 505 pages.*

لكن السؤال الذي يطرح نفسه: ما الذي قدمته تلك المذكرات والسير الذاتية – سواء الصادرة منها زمن بورقيبة وخاصّة زمن بن علي -من جديد للكتابة التاريخيّة المتصلة بالنخبة السياسية في تاريخ تونس المستقلة؟

إنّ دراسة دقيقة ومتأنية لتلك الإصدارات تجعلنا نقف على جملة من الحقائق التاريخيّة لعل أهمها:

معلومات وحقائق جديدة على غاية من الأهميّة:

إلى جانب المعلومات الشخصيّة عن الأوساط التي نشأ وعاش فيها هؤلاء المناضلين وظروف الدراسة وبدايات العمل السياسي والنقابي والجمعيّات ومسيرتهم النضاليّة والمهنيّة بمختلف تفاصيلها ومحطّاتها... فقد تضمّنت جلّ هذه المذكّرات والسّير الذاتيّة عدة حقائق وفصول مثيرة من تاريخ الحركة الوطنيّة لا توجد تماما في الرّوايات الرسميّة المعتمدة من قبل رجالات السلطة والحزب الحاكمين ولا أثر لها بالمرّة في سيرهم ومذكّراتهم الصّادرة من قبلُ (بدفع وبدعم مادي وإعلامي وأدبي من قبل أجهزة السلطة الرسميّة). بل أكثر من ذلك، فالمادة الواردة في البعض منها مناقضة تماما للروايات سابقة الذكر. وهي مسألة على غاية من الخطورة تضع مصداقيّة وموضوعيّة البعض من مناضلينا السياسيّين والنقابيّين موضع الشكّ! غير أنّها تحيل القارئ الفطن وخاصّة المؤرّخ إلى مزيد التدقيق والتثبّت من بعض الأحداث بمقارنة ومقارعة المصادر والرّوايات لمقاربة الحقيقة، لأنّ بلوغ المؤرّخ إلى الحقيقة التاريخيّة المطلقة أمر صعب المنال إن لم نقل مستحيلاً.

ورغم هذه السلبيّات و"الهنات" فقد تضمّنت تلك السّير والمذكّرات الكثير من الحيثيّات والتفاصيل الدقيقة جدًا أحيانًا، أي ما يصطلح على تسميته معشر المؤرّخين بـ "التاريخ المصغّر "La petite histoire". ولئن تبدو هذه الجزئيّات والتفاصيل غير مفيدة أو ثانوية بالنسبة للبعض، فإنّ البعض الآخر من المهتمين بالبيوغرافيا والباحثين في حقول معرفيّة أخرى كعلم الاجتماع والأنتربولوجيا وعلم النفس والاقتصاد والعلوم السياسية يعتبرونها مفيدة إن لم نقل على غاية من الأهميّة لأنّها توفّر لهم مادة أوليّة لا يمكن أن تتوفّر في الأرشيفات العمومية والخاصّة أمهات المصادر والمراجع والدوريّات الأكاديميّة.[٣٨]

مذكّرات "تأريّة" وسقوط في الذاتيّة المفرطة:

لا بدّ من التذكير بأنّ التعامل مع هذه المذكّرات يطرح مشاكل منهجية عويصة، فقد انطلق مجمل أصحابها في إعادة كتابة الذاكرة الوطنية من منطلقات ذاتية. فكاتب المذكّرات السياسيّة يحدّد نفسه بالنظر إلى نصّ سابق، صُبغ في نظره بالا موضوعية وغاب فيه الاعتراف بدوره. ومن هذا المنطلق فهو، وإن حاول صياغة تاريخ جديد للحركة الوطنية أكثر مصداقية، لا يتجاوز البحث عن نفسه داخل الرؤية التي يعلن رفضه لها على حد قول عدنان المنصر[٣٩] فأغلب أصحاب هذه المذكّرات سيسعون إلى إبراز أنفسهم كزعماء حقيقيّين في مواجهة زعيم مزيّف أو فاقد للشرعيّة وتحديد مواقعهم باستمرار بالنسبة إلى الحبيب بورقيبة[٤٠] الذي نجح في مقاومة الاستعمار ثمّ في الوصول إلى سدّة الحكم كأول رئيس للجمهورية التونسيّة بعد الإطاحة بالنظام الملكي في ٢٥ جويلية/يوليو ١٩٥٧.

وليس بالإمكان أن نتناول بالتحليل والنّقد مضامين كلّ المذكّرات والسّير الذاتيّة التي قمنا بحصرها لأنّ ذلك يتجاوز في الواقع حدود مثل هذه الدراسة.

رغم ما تضمّنته هذه المذكّرات والسّير الذاتيّة من معلومات وحقائق جديدة، فإنّ جلّ أصحابها قد سقطوا في الذاتيّة بإبرازهم وتركيزهم على الأدوار التي اضطلعوا بها ضمن الحركة الوطنية بعد أن أهملتها الكتابات التاريخيّة السابقة لها أو قلّلت من شأنها و"حرّفتها" عن قصد أو بغير قصد. كما اتّسم قسمًا هامًا من هذه المذكّرات والسّير بصبغة تبريريّة وذاتيّة معلنة، إن لم نقل مفرطة أحيانًا. فنجدهم أحيانًا يُصدرون أحكامًا قاسية على بعض خصومهم السياسيّين دون الاعتراف بأخطائهم أو تقصيرهم، على غرار ما قام به كل من محمّد الصّالح مزالي، والحبيب عاشور أثناء حديثهم عن بورقيبة، أو محمّد مزالي أثناء

حديثه عن الكتلة المعادية له والمتستّرة بغطاء بورقيبة في أواخر فترة حكمه والتي تزعمتها زوجته وسيلة بن عمّار وضمّت العديد من الشّخصيّات السياسيّة البارزة على الساحة السياسيّة ممّنْ كانوا يأتمرون بأوامرها للتآمر ضده.[٤١] ولعلّ ذلك ما يفسّر حرص بعضهم على ترجمتها ونشرها في طبعة عربيّة بعد أن صدرت في البداية في طبعة فرنسيّة. ونتيجة لذلك تصبح مذكّراتهم وسيرهم الذاتيّة "تأرية" بالأساس.[٤٢] ولنا في مذكّرات عز الدين الشريف "مذكّرات بلدي" والشاذلي الخلاّدي (عبد الحقّ) "زمن الاستعمار"... أفضل الأمثلة. غير أنّ هذا "التأر" يبقى على الورق ولا يتجاوزه نتيجة فشلهم في القيام بذلك على أرض الواقع لعدة أسباب، منها ما هو ذاتي ومنها ما هو موضوعي.

وعلى الرّغم من كل هذه النقائص على مستوى المضمون، فإنّه يمكن القول إنّ أصحاب هذه المذكّرات قد وُفّقوا إلى حد ما في كتابتها وهو إنجاز يُحسب لهم قياسا بظروفهم والتقلّبات والهزّات العديدة التي عرفها أغلبهم إبّان فترة الحماية أو خلال فترة الحكم البورقيبي. لقد قدّم لنا كل هؤلاء زخمًا تاريخيًا ضمّ طيفًا سياسيًا ونقابيًا هائلاً وجوانب ذاتية لا يمكن للمؤرخين والمختصّين أن يجدوها إلا لدى صانعي الأحداث، والتي من شأنها أن تُنير لهم سبل فهم وتحليل مختلف مكوّنات الحياة السياسيّة والنقابيّة والحراك الاجتماعي والثقافي للمجتمع التونسي في أدق جزئياته وخصوصياته واستغلالها على الوجه الأمثل لمراجعة كل ما كُتب وإثراء كل ما سيُكتب حول تاريخ تونس المعاصر.

وعمومًا تضمّنت كل هذه البيوغرافيات والسّير الذاتيّة معلومات وحقائق غير معروفة من قبل الجمهور العريض للقرّاء، وهي بالتأكيد إضافات على غاية من الأهميّة يمكن للمؤرّخ والباحث الاستفادة منها في عديد الميادين والاختصاصات خارج الحقل التاريخي كالعلوم السياسيّة وعم الاجتماع وعلم النفس... غير أنّه نتيجة لطابعها "الثأري" وسقوط الكثير من أصحابها في الذاتيّة المفرطة، فإنّ المؤرّخ مطالب بالتحرّي والتثبّت من المعلومات الواردة فيها وذلك بضرورة القيام بمقاطعتها أساسا مع الأرشيفات وبعض المصادر الشفويّة من الطرف المقابل وغيرها من أبجديّات الكتابة التاريخيّة المحترفة.[٤٣]

٣/٣- إعادة كتابة تاريخ تونس المعاصر مشروع لم يكتمل

في خطوة أولى أعاد الرئيس السابق زين العابدين بن علي إعادة طبع الكتب الأربع حول تاريخ تونس المشار إليها سابقا والتي تمّ تأليفها بطلب من الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة وصدرت باللغة الفرنسية بداية من سنة ١٩٦٨ في أربعة أجزاء. وقد تولّى الأستاذ محمّد مصمودي صاحب دار الجنوب للنشر نشر هذه السلسلة في ثوب جديد وأنيق بتقديم مجموعة من الباحثين والمؤرخين التونسيّين. وقد صدر الجزء الأول الخاصّ بتاريخ تونس القديم سنة ٢٠٠٣، فيما صدر الجزء الثاني عن العهد الوسيط سنة ٢٠٠٥. وصدر الجزء الثالث عن الفترة الحديثة سنة ٢٠٠٨. أمّا الجزء الرابع من السلسلة الخاصّ بتاريخ تونس المعاصر، وبعد مراجعة وتصويب وتحيين من قبل مؤلّفه الأصلي، الأستاذ أحمد القصّاب والأستاذ أحمد ونيّس (الذي التحق به)، فقد صدر قبل الإطاحة بنظام بن علي في ١٤ جانفي/يناير ٢٠١٤. وبمناسبة صدور الجزء الرابع من هذه السلسلة نظّم فضاء "آر ليبريس "Art-libris" (بضاحية قرطاج صلامبو) يوم الجمعة ٢٥ جوان/يونيو ٢٠١٠، احتفالا تمّ خلاله تقديم الكتاب بحضور مؤلّفَيْ الكتاب[٤٤].

أمّا بالنسبة للّغة العربية، فقد قام الحزب الحاكم بتكوين لجنة من الباحثين الجامعيّين والمؤرّخين التونسيّين ترأسها الأستاذ خليفة شاطر، تولت إصدار أربعة كتب في الفترات التاريخيّة الأربع بعنوان: " تونس عبر التاريخ "، تولّى نشرها مركز الدّراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية بتونس بين سنتي ٢٠٠٥ و٢٠٠٨[٤٥]. وقد قدّم لهذا السلسلة الأستاذ خليفة شاطر بمقال بعنوان: "من حصاد المدرسة التاريخيّة التونسية". وهي كالآتي:

- جماعي، **تونس عبر التاريخ**، الجزء الأول: **العصور القديمة**، إشراف الأستاذ خليفة شاطر، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٧، ٢٣٥ صفحة.
- جماعي، **تونس عبر التاريخ**، الجزء الثاني: **من العهد العربي الاسلامي إلى حركات الإصلاح**، إشراف الأستاذ خليفة شاطر، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٧، ٣١١ صفحة.
- جماعي، **تونس عبر التاريخ**، الجزء الثالث: **الحركة الوطنية ودولة الاستقلال**، إشراف الأستاذ خليفة شاطر، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٥، ٢٠٧ صفحة.
- جماعي، **تونس عبر التاريخ**، الجزء الرابع: **تونس التحوّل**، إشراف الأستاذ زهيّر مظفّر، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٧، ٢٠٧ صفحة.

ولئن لم تطرح الأجزاء الثلاثة الأولى من هذه السلسلة اشكالات تذكر فإنّ الجزء الرابع الخاصّ بتاريخ تونس ما بعد ١٩٨٧ أو "تونس التحوّل" قد أثار جدلا في صفوف بعض المؤلفين له والوسط الجامعي عامة لحرص المشرف على هذه السلسلة وعلى مستشار رئيس الجمهورية وزير أملاك الدولة وأستاذ القانون الدستوري الأسبق، الأستاذ زهيّر المظفّر على توجيه مضمون نصوص المؤلفين وذلك بقراءتها قراءة دقيقة في ثنايا الجمل والكلمات ودلالاتها ورفض وتنقيح عديد الفقرات والعناصر منها مرارًا وتكرارًا لتتضمّن مادة تاريخية تليق بـ "صانع التغيير" ومكاسب تونس في "العهد الجديد" في جميع المجالات من بينها حرّية الصّحافة والتعبير والتنظيم والنشاط السياسي.[٤٦]

٤/٣- تغييب لبورقيبة من الذاكرة الجماعية للتونسيّين

يُجمع التونسيّون من مختلف الأعمار والمستويات والانتماءات السياسية والفكرية على أنّ بن علي الذي أزاح بورقيبة من الحكم يوم ٠٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٧ إثر "الانقلاب الطبّي" قد عمل ما بوسعه على تغييب بورقيبة من الساحة الوطنية والذاكرة الجماعية حيّا وميتا وذلك بضرب تعتيم كلّي على كلّ ما يتصل بشخصيته خشية من أن يبرز على حسابه. ومؤشرات هذا التعتيم عديدة يمكن ذكر بعضها:

- التقليص من عدد الدروس الخاصة ببورقيبة والحزب الدستوري الجديد من البرامج الرسمية لمادتي التاريخ والتربية

المدنية وتحديدا تاريخ الحركة الوطنية في برامج السنوات الخامسة والسادسة من السنة التاسعة للتعليم الأساسي وخاصّة برامج السنوات النهائية من التعليم الثانوي (أقسام البكالوريا) في مختلف الشعب المخصّصة للحزب الدستوري الجديد مع انطلاق تطبيق قانون الإصلاح التربوي لسنة ١٩٩١ الذي أقرّه وزير التربية والتعليم العالي آنذاك، الأستاذ الراحل المناضل اليساري محمّد الشرفي.

- حذف التماثيل التذكارية للزعيم بورقيبة من الساحات العمومية بالمدن التونسية (باستثناء نُصبَيْ حلق الوادي وطبرقة العملاقين ونصب الصغير بمسقط رأسه بمدينة المنستير)، علاوة على إزالة جميع الصور والنصب الرسمية من جميع الإدارات العمومية.

- "إعدام" جميع المنشورات المتصلة بالزعيم بورقيبة من كتب ومؤلفات ودوريات...، بالحرق أو بالتخلّص منها بشتى الطرق أو نقلها في أفضل الحالات إلى مخازن الأرشيف للإدارات والمؤسسات الرسمية. ولم تسلم إلاّ تلك الموجودة بالمكتبة الوطنية والأرشيف الوطني ومراكز البحث العلمي المتخصّصة والمكتبات العمومية.

- نقل جميع خطب بورقيبة وخطب وزراءه وتسجيلاتهم الصوتية (في شكل أشرطة سمعية ومرئية) بالإذاعات العمومية والتلفزة الوطنية إلى الأرشيف فأصبحت عرضة للتلف والرطوبة واستحال على الباحثين والمؤرخين استغلالها في أغراض علمية أكاديمية صرفه.

وبعد وفاته منع بن علي بثّ جنازة بورقيبة عبر التلفزيون التونسي وخيّب أمل الملايين في تونس وخارجها من الذين كانوا ينتظرون نقل مراسم الجنازة، إذ بث التلفزيون ساعة تشييع بورقيبة إلى مثواه الأخير برنامجا وثائقيا عن الطيور والمحميّات الطبيعية في تونس والامتناع عن إعطاء إشارة البثّ " Le Signal de diffusion" لعشرات القنوات التلفزية ووكالات الأنباء الدولية التي أوفدت مراسلين لها إلى تونس لنقل مراسم الدفن يوم ٠٨ أفريل/أبريل ٢٠٠٠.

- منع تنظيم أي احتفال بالذكرى السنوية لوفاة بورقيبة.

- منع رفاق الرئيس الراحل من السياسيّين المعروفين من التحول إلى المنستير للمشاركة في إحياء ذكرى رحيله وزيارته في "سجنه الأخير" بمسقط رأسه[٤٧].

وغيرها من الممارسات الأخرى التي مكنت بن علي من "تغييب" زعيم البلاد وأحد أبرز محرّريها وبُناة دولة الاستقلال عن الذاكرة الجماعية للتونسيّين، لا سيّما الشبّان منهم المولودين بعد سنة ١٩٨٧ !

وبقد ما نجح بن علي ونظامه في طمس وتشويه تاريخ الرجل وغبطه لمدة ٢٣ عاما كاملة (من ١٩٨٧ إلى غاية ٢٠١٠) فإنّ الزعيم الحبيب بورقيبة قد عاد من جديد إلى ساحة التاريخ الوطني بأشكال جديدة وأكثر قوّة حتى من فترة حكمه بعد ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١. وبذلك يمكن القول أنّ عملية "السطو" على التاريخ مآلها الفشل التام والانتكاس، لا في تونس، بل في جميع دول العالم !

٥/٣-حرص بن علي على تلميع صورته وكتابة تاريخ ناصع لنظامه

بغاية التأريخ لمحاسن نظام "العهد الجديد" وإنجازات "التحوّل المبارك" وكتابة تاريخ مُشْرِقٍ لشخصه ولنظامه منذ توليه الحكم في ٠٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٧، توجّه بن علي أولا إلى المؤرخين المختصّين في التاريخ المعاصر وتاريخ الزمن الراهن. وعندما لم يجد تجاوبا في صفوف هؤلاء توجّه إلى الجامعيّين التونسيّين من التجمعيّين بدرجة أولى (نسبة لحزب التجمّع الدستوري الديمقراطي الحاكم وريث الحزب الدستوري منذ ٢٧ فيفري ١٩٨٨) في اختصاصات مختلفة: في التاريخ، في العلوم القانونية والسياسية في اللغة والآداب العربية والفرنسية (في اختصاص الحضارة تحديدا)، في الاقتصاد، في الماليّة... الخ. ولتحقيق ذلك قام بن علي بتوظيف جيش من الكتّاب والمؤلفين ورجال فكر من داخل تونس وخارجها.

(٥/٣) ١-من داخل تونس:

من الصّعب ضبط قائمة كاملة في الاصدارات التي أرّخت لنظام بن علي ومزاياه وأياديه البيضاء على البلاد والعباد... لكثرتها وتنوعها: كتب ومؤلفات، كتيّبات، نشريات، دوريّات، مقالات منشورة وغير منشورة... لذا سنقتصر على ذكر المؤلّفات دون سواها. أحصينا خلال الفترة الممتدّة بين ١٩٩٢ و٢٠٠٩ من حكم بن علي، صدور ٢١ عنوانا لكتاب تونسيّين، ١٢ إصدارا منها باللغة العربية و٠٩ إصدارات باللغة الفرنسية صدرت داخل تونس وخارجها. وهي مرتبة ترتيبا كرونولوجيا كالآتي:

* **باللغة العربية:**

- جماعي، **٧ نوفمبر/تشرين الثاني: الثورة الهادئة**، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر، تونس، ١٩٩٢.
- ص.ش، **بن علي والطريق إلى التعدديّة**، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٩٥.
- ص.ش، **عودة حنبعل... أو تجديد العهد**، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٩٧.
- ع.ب، **الاستقرار السياسي في تونس**، أوربيس، تونس، ١٩٩٧.
- م.ع.ح، **تونس المستقبل**، أوربيس، تونس، ١٩٩٩.
- س.ش[٤٨] و ص.ب.ج، **بن علي خيار المستقبل**، سانباكت، تونس، ١٩٩٩.
- س.ب.ف، **الإصلاح الدستوري في جمهورية الغد**، سلسلة المكتبة القانونية، تونس، ٢٠٠٢.
- ز.م، **جمهورية الغد : الأسُسُ والأبعاد**، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس،٢٠٠٢.
- ع.ش، **الثقافة في فكر الرئيس زين العابدين بن علي، سيلدار**، تونس، ٢٠٠٣.
- ز.م، **من الحزب الواحد الى حزب الأغلبية -التجربة التونسية**، سنباكت، تونس، ٢٠٠٤.
- ص.ش، **من ديمقراطية المعتقدات الى ديمقراطية البرامج**، الدار العربية للكتاب، تونس، ٢٠٠٥.
- ح.ف، **بن علي فلسفة التحدي ومسارات المستقبل**، تونس، ٢٠٠٩.

وغيرها من العناوين والإصدارات "تحت الطلب" من تأليف المتزلّفين للنظام.

*** باللغة الفرنسية:**

- Sadok Chaâbane, Ben Ali et la Voie Pluraliste en Tunisie, CERES Editions, Tunis, 1996.
- Sadok Chaâbane, Ben Ali on the Road to Pluralism in Tunisia, American Educational Trust - Washington DC, 1997.
- Sadok Chaâbane, Les Défis de Ben Ali, Editions de l'Orient, Paris, 1999.
- Sadok Chaâbane, Ben Ali : Bâtir une Démocratie, Maison arabe du Livre, Tunis, 2005.
- Moncef Guitouni, Tunisie le Destin Recouvré, Editions ESKA, Paris, 1997.
- Mohamed Béchir Hlaiem & Hédi Mhenni, Ben Ali: l'Ethique au Service du Politique, Orbis, Tunis.
- Mézri Haddad, Des Acquis aux Défis, Paris Médiane, 2004.
- Colectif, Ben Ali l'Homme des Promesses Tenues, SIMPACT, Tunis, 2004.
- Mohamed Laïd Ladab, Tunisie du 7 Novembre : Une Nouvelle Stratégie du Développement à l'Ere de la Globalisation, SAGEP, Tunis, 1996.

والمتأمّل في قائمة مؤلفي هذه الكتب يلاحظ أنّه على ٢١ مؤلفًا، ١١ منهم جامعيّون وهو ما يعطينا نسبة تفوق النصف بقليل (٥٢,٣٨ %) وفي ذلك ذليل واضح على نجاح بن علي وأجهزته في استقطاب خيرة الجامعيّين التونسيّين تمهيدا لـ "تدجين" الجامعة وتوظيفها في خدمة مشروعه السياسي!

(٥/٣) ٢-من خارج تونس:

عبر عدة هياكل ومؤسّسات رسمية وفي مقدمتها "الوكالة التونسيّة للاتصال الخارجي " L'Agence Tunisienne de Communication Extérieure" (ATCE) التي بُعثت للغرض منذ سنة ١٩٩٠ والتي كان من الذين أشرفوا على إدارتها أساتذة جامعيّون نذكر من بينهم أستاذ الحضارة العربيّة، الأستاذ م. ز (بين ٢٠٠٧ وأفريل/أبريل ٢٠١٠) الذي شغل من قبلُ خطة مدير ورئيس تحرير جريدة الحريّة (بين ٢٠٠٥ و٢٠٠٧) ومستشار وزير الثقافة (بين ١٩٩٨ و٢٠٠٧)...، إضافة إلى ديوان التونسيّين بالخارج وبعض السفارات والقنصليّات والمراكز الثقافية التونسية بالخارج. وكان من أولويات هذه الوكالة طبع ودعم عديد الكتب الدعائية لنظام بن علي، إضافة إلى دعم عديد الدراسات والمقالات والبحوث...، ماديًا وإعلاميًا عبر الدعاية لها عبر وكالة الأنباء الأجنبية ووسائل الإعلام الرسمية المرئية والمسموعة والمكتوبة.[٤٩] وقد أحصينا حوالي (٤٢) إصدارًا لكتّاب أجانب، (٢٤) منها باللغة العربية و(١٨) باللغات الفرنسية والإيطالية والانجليزية، منها ما طُبع بتونس ومنها ما طُبع في الخارج. ولم تقتصر هذه الإصدارات على التأريخ لبن علي وانجازاته فحسب، بل وكذلك لحاكمة قرطاج، سيّدة تونس الأولى، حرمه، ليلى بن علي. وفيما القائمة الكاملة لهذه الإصدارات بالغتين العربية والفرنسية:

باللغة العربية:

- أ.س.، **بن علي صانع المستقبل**، طرابلس، ٢٠٠٢.
- أ.س.، **الربّان والسفينة**، سنباكت – تونس، ٢٠٠٤.
- أ.س.، **زين العابدين بن علي: التوهّج الدائم، تونس**، ٢٠٠٩، ١٢٩ صفحة.
- كاتب مجهول، **إنجازات الرئيس زين العابدين بن علي**، مركز زايد للتنسيق والمتابعة - دولة الإمارات العربية المتحدة، شركة أبو ظبي للطباعة والنشر، أبو ظبي، ٢٠٠٢، ٥٩ صفحة.
- أنطوان غريب، **تونس من التحرير الى التغيير**، دار الميثاق للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٦.
- جورج علم، **بن علي وصناعة التاريخ**، بيروت، ٢٠٠٩.
- جيهان عاصم، **التونسية ملكة متوّجة**، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ٢٠٠١.
- جيهان عاصم، **تونس بن علي بِعُيونٍ مصرية**، القاهرة، ١٩٩٩.
- حميدة نعنع، **العقل في زمن العاصفة، دار كتابات**، بيروت، ١٩٩٩، ٢٨٦ صفحة.
- رفيق الصيداوي، **ليلى بن علي وتطلّعات المرأة العربية إلى الحداثة**، دار الميثاق للدراسات والنشر، بيروت ٢٠١٠.
- سالفاتوري لومباردو، **تونس المستقبل**، أوربيس للنشر، تونس، ١٩٩٩.
- سالفاتوري لومباردو، **ربيع تونسي: مسيرة متضافرة بين الرئيس وشعبه**، سراس للنشر، تونس، ١٩٩٩.
- عبد الرحمان مطر، **تونس بن علي: شرعية الإنجاز**، دار النورس، دمشق، ٢٠٠١.
- عبد العزيز بن عبد الله السنبل، **تونس الأصالة والمعاصرة في عهد بن علي**، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر – بيروت، ٢٠٠٢.
- عصام كامل – سوسن أبو حسين، **المعجزة التونسية**، رسالة للنشر والخدمات الصحفية، القاهرة، ٢٠٠٥.
- علي الصرّاف، **بن علي ومسيرة التحديث في تونس**، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٤.
- بدر الدين أدهم، **المرأة التونسية من التحرّر إلى دوائر القرار**، دار الكتب المصرية – القاهرة، ٢٠٠٤.
- علي طعمه، **تونس وعصر الزين: تحوّل من أجل الانسان**، مؤسسة الهيثم للصحافة والطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٩.
- عوض سلام، **تونس... التحدّي: الشراكة الأورومتوسطية**، فنّ الطباعة، تونس، آرتيب، ٢٠٠٥.
- مجموعة من الباحثين، **وعدٌ وإنجازٌ**، سنباكت – تونس ٢٠٠٤.
- مجموعة من الباحثين، **أفكار من أجل تونس**، منشورات أفكار أون لاين بيروت، ٢٠٠٤
- محمّد حلمي، **بن علي رجل الإصلاح والإنجاز**، دار الجمهورية

للصحافة، القاهرة، ٢٠٠٤.
- ندى أيّوب-يونس عوده-نهاد حشيشو، **بن علي: نجاح التجربة وشرعيّة الطموح**، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع – بيروت، ٢٠٠٥.
- نوّاف الرومي، **اندماج الاقتصاد التونسي في العولمة في عهد زين العابدين بن علي**، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية – تونس، ٢٠٠٦.

باللغة الفرنسية:
- Collectif, Geschichte und Gegenwert Lucian O. Meysels, Tunesien - Brennpunkt der Kulturen, Herbig, Munich, 2004.
- Collectif, Zine El Abidine Ben Ali : Les Grands Changements, Union des Ecrivains Russes, Union des Ecrivains Russes – Moscou, 2003.
- Gaetana Pace, L'Euro-Mediterraneità della Tunisia di Ben Ali, Edizioni dell'oleandro, Rome, 1995.
- Georgie Anne Geyer, Tunisia, a Journey through a Country that Works, Stacey International, Londres, 2003.
- Georgie Anne Geyer, Tunisie, le Pays qui Avance, Mediane, Paris, 2004.
- Jon Marks and Mank Ford, Tunisia: Stability and Growth in the New Millennium, Euromoney books, London, 2001.
- Nicole Ladouceur et Luc Dupont, La Tunisie, une Démocratie Naissante, Editions de la SROH - Montréal, 1993.
- René Blanchot - Marceau Bigéni, La Tunisie de Ben Ali et le Partenariat Euro- Méditerranéen, Institut Méditerranéen d'Etudes Economiques et Financières, Toulon, 2001.
- Salvatore Lombardo, La Revanche de Carthage, Autres Temps, Marseille, 2000.
- Salvatore Lombardo, Un Printemps Tunisien, Autres Temps, Marseille, 1998.
- Salvatore Lombardo, Un Rêve plus Loin, Carnets Tunisiens, Autres Temps, Marseille, 1998.
- Valentin Mbougueng, Ben Ali et le Modèle Tunisien, Editions de l'Orient, Paris, 1999, 102 pages.
- Valentin Mbougueng, La Tunisie en Afrique, Mediane, Paris, 2002.
- Vincenzo Porcasi, L'Approccio Tunisino alla Solidarietà, Edizioni Dell'Oleandro, Rome, 2003.
- Vincenzo Porcasi, Pour un Développement Solidaire - l'Expérience de la Tunisie, Mediane, Paris, 2003.
- Yves Brissette, Luc Dupont et Moncef Guitouni, La Tunisie de Ben Ali: Les Défis de l'Emergence, Carte Blanche - Québec, 2003.
- Gaetana Pace, Ben Ali, All' Insegna Delle Grandi Sfide, Edizioni Dell'Oleandro, Rome, 2002.
-Valentin Mbougueng, Institutions et Vie Politique en Tunisie, Orbis, Tunis, 2006.

وقد أحصينا من بين هذه الإصدارات (٦٣) عنوانًا لكتّاب تونسيّين وأجانب، صدرت بكل من تونس والخارج. وإذا ما علمنا أنّه كان يتمّ إنفاق حوالي ٥٠,٠٠٠ دينارا (أي حوالي ٢٥,٠٠٠ دولارًا) بالنسبة لكل كتاب يطبع خارج تونس، فإنّ المبلغ الجملي الذي كان ينفق على تلك الكتب يبلغ ٣,١٥٠,٠٠٠ دينارا (أي حوالي ١,٧٥,٠٠٠ دولارا) وهي مبالغ تُصرف كما هو معلوم بالعملة الصّعبة. يُضاف إلى هذا المبلغ الضخم ما كان ينفق من أموال طائلة (بالعملة الصّعبة كذلك) لسحب بعض الكتب المعارضة لبن علي وأفراد عائلته من السوق بالبلدان الأجنبية التي تصدر بها وفي مقدمتها فرنسا وكندا وسويسرا... وهي في اعتقادنا أموال المجموعة الوطنيّة كان من الأجدى إنفاقها على طبع كتب علميّة أو تحقيق طبع كتب في التراث التونسي- أو ترميم مواقع ومعالم أثريّة متداعية... أو في التنمية البشرية والمحلية. وللتدليل على ذلك يكفي الرجوع للتقرير النهائي للجنة تقصّي الحقائق حول الرشوة والفساد المشار إليه آنفا لندرك بالأمثلة والأرقام حجم التلاعب بالمال العمومي انطلاقا من كبرى الملفات وفي مقدمتها ملفيّ الحوض المنجمي وملفّ "وكالة الاتصال الخارجي" الذي انفرد بحوالي (٥٠) صفحة من كامل التقرير الذي تضمّن أكثر من ٥٠٠ صفحة.

(٥/٣) ٣-مصادرة مؤلفات المؤرخين والمؤلفين غير الموالين للنظام:

مقابل كل هذا التبذير والإسراف للمال العام في كتب لا يمكن القول عنها سوى أن لا قيمة لها بالمرّة وأنّ مكانتها "داخل القمامة" أو في سلّة المهملات، كانت المؤلفات التاريخيّة والسياسية للوجوه العلمية والأكاديمية التونسية الملتزمة والمحايدة، لا تَلْقَى إطلاقًا الدعم والحظوة والعناية المادية والأدبية اللازمتين ولا حتى الترخيص بصدورها ونشرها. وقد تسبّبت هذه السياسة في حصول خيبة أمل وإحباط لدى الكثير من المثقّفين والمؤلفين، لا سيّما لدى الملتزمين وحتى لدى المستقلّين وغير المنتمين منهم للحزب الحاكم ولأحزاب الموالاة. فقد اضطرّ البعض من بين هؤلاء إلى طبع مؤلفاتهم خارج البلاد للإفلات من الرقابة وطول الانتظار للحصول على الإذن بالصدور والنشر- الأمر الذي كلفهم مصاريف مادية باهضة وعديد المضايقات البوليسيّة والتتبّعات العدلية.

وفي هذا الإطار، يمكن ذكر مؤلفات كل من: المرحوم الأستاذ محمّد الشرفي وهالة الباجي والدكتور المنصف المرزوقي والمازري الحداد ومحسن التومي... (من الجامعيّين) وكل من: سليم بقّة وأحمد المناعي وتوفيق بن بريك... (من غير الجامعيّين) التي طُبعت في الخارج ومُنعت من الدخول إلى البلاد، حتى بمناسبة انتظام المعرض الدولي للكتاب بتونس. ورغم نجاح بن علي

وبطرق مختلفة في "احتواء" الأستاذ المازري الحدّاد بتعيينه سفيرا لتونس في منظمة اليونسكو بباريس (بين ٢٠٠٩ و٢٠١١)، فإنّ هذا الأخير قد قدّم استقالته في الربع ساعة الأخير (صباح ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١)، أي قبل سقوط النظام وانتقد رئيسه في عديد المنابر الإعلامية قبل وبعد استقالته. وبذلك أمكن له التدارك في الوقت البديل!

وفي ذات السياق تورد الأديبة زينب الجويلي ما يلي: "... كان نظام بن علي النقطة السوداء في تاريخ تونس كلها وتاريخ المثقّف التونسي- بالخصوص، حيث شهدت مسيرته انزلاقًا وانحدارًا، واختار بعضهم التصفيق لسياسة العهد البائد فكتم صوت الضمير والكلمة الصادقة المبنية على النقد الأمين الحر البناء..."[٥٠] وحول لجنة القراءات بوزارة الداخلية أوضحت: "... في العهد البائد بتونس كانت تتشكل لجنة قراءات بوزارة الداخلية تصدر أحكاما تعسفيّة تصادر حرّية التعبير، أما الكتب التي تمجّد وتنافق يُكتب لها أن ترى النور، وأصبح الكاتب مضطرًا لأن يجعل المعاني مكبوتة تتأرجح في قراءة ذكيّة لما بين الأسطر من أجل أن يتخطى دائرة الممنوع...". وأشارت إلى أنّ: "الثورة التونسية كانت المتنفس الذي فكّ أسر الكتاب، حيث شهد الأسبوع الأول منها تصدّر واجهات المكتبات التونسية سلسلة من الكتب الممنوعة التي صُودرت سابقا ومن أشهرها رواية [حاكمة قرطاج] التي مُنعت من دخول البلاد وشهدت أكثر نسبة إقبال من حيث الشراء بالإضافة إلى العديد من المراجع. وبعد ما أُلغِيَتْ كل القيود السابقة التي ضيّقت الخناق على المبدع التونسي، نشطت حركة النشر- والتوزيع بتونس، وعادت الأمور إلى حركة توازن لطالما بقي المثقّف التونسي- متعطشا لها..."[٥١].

ولم تفلت بعض مراكز البحث العلمي من هذه الرقابة حيث بقيت أشغال عدة ندوات دولية والأيام الدراسيّة حول الذاكرة الوطنية التي انتظمت في رحاب مؤسّسة التميمي للنشر- في مكاتب مصلحة الإيداع القانوني بالمكتبة الوطنية سنوات نظرا لتضمّنها فقرات، إن لم نقل كلمات، معارضة لنظام بن علي. وهو ما عرّض المؤسّسة في سنة ٢٠٠٦ إلى الهجوم ليلاً من قبل مجهولين وتكسير لجدرانه وإتلاف لأثاثه ولبعض الوثائق بمبنى المؤسّسة، الأمر الذي كلّفه خسارة مادية قُدّرت بحوالي ٣,٠٠٠ دينار للترميم والإصلاح ورفع قضيّة ضد مجهول. كما صُنّفت المؤسّسة كـ "مركز بحث مُعارض". وقد اضطرّ الأستاذ عبد الجليل التميمي إلى طبع البعض من منتدياته وندواته في الخارج، على غرار المنتدى الخاصّ بالاتحاد العام التونسي للشغل الذي تضمّن شهادة شفوية للوجه الجامعي والنقابي الأسبق، الأستاذ الطيّب البكوش، لم تعجب جهاز بن علي،... والأمثلة على ذلك كثيرة.

وأمام تظلّم صاحب المؤسّسة من هذه الممارسة والتنديد بها في الخارج، اتصل الوزير المستشار للرئيس بن علي، المرحوم عبد العزيز بن ضياء بالأستاذ عبد الجليل التميمي ليقترح عليه تنظيم ندوة أو نشاط متصل ببن علي وبإنجازاته منذ ١٩٨٧ و"طيّ صفحة الماضي"[٥٢]. لكنّ هذا الأخير رفض بتعلّة وجود عديد المؤسّسات الرسمية على غرار المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية والتجمّع الدستوري الديمقراطي ووكالة الاتصال الخارجي للقيام بمثل هذه الأنشطة! بل أغرب من ذلك، ورغم أنّ عديد الكتب العلمية التي كانت تطبع خارج تونس وتنتمي إلى صنف المؤلفات العلمية أو التاريخيّة أو الأدبية المحضة ولا تتضمّن مادة سياسية أو نقدا لنظام بن علي وسياسيته في الحقل الثقافي أو الاقتصادي...، فقد كانت تخضع لترخيص مسبق من وزارة الداخلية قبل توزيعها ونشرها في تونس. وفي هذا الصدد يمكن ذكر مصير نسختين من كتاب الأستاذ محمّد الطاهر المنصوري حول تاريخ جزيرة قبرص في العهد الوسيط، الذي رغم طابعه التاريخي بقي ينتظر الإذن بالدخول لمدة أشهر، قبل الحصول على ترخيص من مصالح وزارة الداخلية التي عهدت لشخص "شبه أمّي" قراءته وتقييمه وصياغة تقرير حول مضمونه، قبل السّماح لصاحبه سحبه نُسْخَتَيْهِ من مصالح الديوانة[٥٣] ! والأمثلة على ذلك عديدة.[٥٤]

وخلاصة القول؛ أنّ النظام البوليسي لبن علي لم يطوّر في نهاية الأمر إلا الثقافة التي تناسبه، ثقافة المديح والولاء من جهة، وثقافة الإسفاف التي تخاطب الغرائز من جهة ثانية. وبالطبع لا يمكن للمرء أن ينتظر من نظام مثل هذا أن يطوّر الكتابة التاريخيّة والمعرفة التاريخيّة بثقافة تخاطب العقل وتنمّي الملكات النقدية للناس وترتقي بأذواقهم وتحرّرهم من الجهل والظلام وعقليّة "القطيع الوديع" الخاضع كليًا لسلطة الراعي. وقد ألحقت هذه السياسة أضررًا فادحة بالبحث في تاريخ الزمن الراهن أو التاريخ الآني لتونس بصفة خاصة والفكر النقدي النيّر عامة نتيجة الحصار الرهيب الذي ضُرب عليه في وقت كانت فيه الأفكار الرجعية والمتعصبّة تجد طريقها إلى قلوب القرّاء التونسيّين، لا سيّما الشبان منهم وذلك عبر المنشورات القادمة من الشرق في معرض تونس الدولي للكتاب وعشرات القنوات التلفزية التي كانت ولا تزال إلى اليوم تبثّ سمومها من أقطار الخليج العربي. وقد أدّت هذه السياسة إلى تجفيف منابع الفكر التقدمي المستنير ومهّد الطريق تدريجيًا لظاهرة التطرّف الديني في تونس ما بعد ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١.

وهكذا يمكن القول إنّ حصيلة كتابة تاريخ النخبة السياسية التونسية والعربية خلال الفترة المعاصرة كانت حصيلة سلبية في العموم لأنّ كتابها، سواء كانوا من الفاعلين السياسيّين وخاصة من "المؤرخين الرسميّين" أو "مؤرّخي القصر" قد رسموا صورا زاهية للرئيس وللحزب الحاكم فكانوا "مؤرخين تحت الطلب" غنموا عديد الامتيازات والمكارم مقابل كتابتهم فقدموا تاريخًا كله بطولات. وبمجرّد سقوط نظام بورقيبة سنة ١٩٨٧ تحرّرت الأقلام والأفواه لتقدم تاريخًا مغايرًا تمامًا لما كُتب في عهده وكذلك الشأن بالنسبة لفترة ما بعد سقوط نظام بن علي في ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١ بما أنّنا نعيش منذ تلك اللحظة وإلى اليوم على "كذبة" تاريخه الحافل بالمكاسب والإنجازات!

أخيرًا بعد التعريف بملامح النخبة العصريّة التونسيّة بمختلف أصنافها وفروعها وعلاقاتها...، خلال فترة اهتمامنا (قُبيل الحماية وطيلة كامل الفترة الاستعماريّة وفجر الاستقلال) وكيف كتب تاريخها خلال فترتي حكم بورقيبة وبن علي، وفي ظلّ ما شهدته تونس منذ سنة ٢٠١١ من زخم تاريخي بتصدّر الملفات

والشهادات التاريخيّة لوسائل الاعلام الرسمية والخاصّة وزوال الطابوهات والمحاذير التي سلّطها حكّام تونس طيلة أكثر من نصف قرن على تاريخ تونس المستقلّة بمنعهم الخوض في الملفات التاريخيّة الشائكة أو الحارقة المتصلة به - كما نعتها الاعلاميّون – وتغييبهم لتاريخ عديد الشخصيات والمنظمات والأحداث الوطنية الهامة من الذاكرة الجماعية...، جدير بنا أن نتساءل: كيف السبيل لكتابة تاريخ النخبة السياسية التونسية بطريقة وأسلوب علميَيْنِ بعيدة كل البعد عن الحسابات السياسية – بل السياسوية – والحزبية الضيّقة؟

٦/٣-سبل التأسيس لكتابة تاريخ موضوعيّ من طرف السياسيّين

من الصّعب تقديم "وصفة" لنموذج مثالي للكتابة التاريخيّة من قبل السياسيّين، سواء كان ذلك بتونس أو بسائر أنحاء العالم العربي. من وراءه تاريخنا الوطني لعدة أسباب، أوّلها أنّ الكتابة الفردية للتاريخ غالبا ما تخضع لثقافة المؤرّخ وميوله واتجاهاته السياسية والفكرية الذي غالبا ما يركز على الإيجابيات والانتصارات ويتناسى ويغيّب الإخفاقات والنكسات وكل أشكال الفشل للحزب الحاكم الذي ينتمون إليه والعكس بالعكس. وللمحافظة علي الموضوعية والحياد في هذا الجنس من الكتابة التاريخيّة من الضروري في اعتقادنا:

- تشكيل هيئة أو لجنة وطنية مستقلة لكتابة التاريخ السياسي لتونس بمختلف أحداثه ومحطاته والأطراف الفاعلة فيه من نخب وجماهير وأحزاب ومنظمات ومؤسسات وجمعيات...، تضمّ خيرة المؤرخين والباحثين الأكاديميّين بالجامعة التونسية بمختلف كلياتها ومعاهدها ومراكز ومخابر ووحدات البحث بها بكامل جهات البلاد وذلك في الفترات التاريخيّة الأربع: القديم والوسيط والحديث والمعاصر وفي جميع الاختصاصات، بدءًا بالتاريخ السياسي مرورًا بالتاريخ الاقتصادي فالاجتماعي وصولاً إلى التاريخ الثقافي والديني.

- إتاحة قدر كبير من حرّية البحث وفتح الأرشيفات العمومية وفي مقدمتها أرشيفات رئاسة الجمهورية ووزارة الداخلية ووزارة الخارجية والحزب الدستوري والتجمّع الدستوري الحاكمَيْنِ (بين ١٩٥٦ و٢٠١١)...، أمام الباحثين حتى يتسنى لهم الاطلاع علي الوثائق الأصلية...، مع إلزامهم بواجب التقيّد بأخلاقيات المهنة وفي مقدمتها: عدم التشهير بالأشخاص والذوات والأعراض وعدم المسّ بالأمن القومي والوحدة الوطنية وكذلك بالحرمة الترابية للدول المجاورة والشقيقة والصديقة.

- وجوب الحرص على تفسير جميع الأحداث التاريخيّة التي جدّت بتونس منذ سنة ١٩٥٦، بدءًا بالتفسير المادي وصولاً إلى التفسير المثالي للتاريخ مع الحرص على البحث عن دور الفرد بالرجوع إلي الظروف الموضوعية المصاحبة للحدث داخليًا وخارجيًا (إقليميًا ودوليًا).

- كتابة وتفسير الأحداث التاريخيّة بالاستعانة بالعلوم المكمّلة للتاريخ "Les sciences connexes de l'histoire" مثل علم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم النفس والأنثروبولوجيا وعلم الآثار...، بدءًا بدور الطبيعة والبيئة الجغرافية، مرورًا بالتكوين العلمي وصولاً لنفسيّات الفاعلين في التاريخ وأبطاله.

- الابتعاد عن الأحكام القطعيّة في تفسير الأحداث التاريخيّة، أي أن يكون ماديًا أو مثاليًا ومن هنا اختلاف وجهات النظر لأن كل حُكمٍ أو من الحُكمَيْنِ أو تفسير من التفسيريْنِ يؤدي إلي نتيجة مغايرة للأخرى ويكرّس التفرقة في صفوف القرّاء بين متقبّل ورافض لهذا التفسير.

- الابتعاد عن المجاملة لنظام أو حزب أو تنظيم...، وخاصّة لشخص أو مجموعة أشخاص عند تفسير الأحداث السياسية على أنها تاريخًا، بينما المنهج العلمي في التاريخ يرى أنّ التاريخ يبدأ حين تنتهي السياسة. أي بعبارة أخرى لا ينبغي أن نكتب تاريخ بلد ما في ظلّ وجود الحاكم في سدة الحكم لأنّ المؤرّخ أو الكاتب سيخضع حتما للمناخ السياسي القائم بالبلاد لأنّ ما يدوّنه اليوم من أحداث قد يتغير في اليوم الموالي. وفي ذلك خطورة على الكتابة التاريخيّة والبحث العلمي عامة.

- الاستقلاليّة عن السياسة وعن الدين لأنّه إذا تحكّمت الاتجاهات السياسية والدينية لدى كاتب التاريخ والمؤرّخ فسوف ينتهي به المطاف إلى تدمير وقائع التاريخ لصالح الاتجاه أو الحزب السياسي الذي يكتب عنه. وكذلك الحال إذا تحكّمت في نوازع المؤرّخ عقيدة أو مذهب ديني. فالشيعة مثلا إذا كتبوا تاريخ السنة سوف يلعنون أهل السنة والعكس صحيح. والتاريخ الذي تمليه الأهواء لا يصبح بالمرّة تاريخًا وليس هناك شيء أكثر إفسادا للتاريخ من الأهواء.[٥٥]

- وجوب إرساء أسس مدرسة تاريخية وطنية بكل بلد عربي ومن بينها تونس تنبع منها أفكار المؤرخين التونسيّين. ومن الضروري أن تتميز هذه المدرسة عن غيرها من المدارس التاريخيّة بحضور قويّ وعميق للهويّة الحضارية والثقافية والتاريخيّة لتونس. لأنّه كما هو معلوم إذا استعمل التاريخ لأغراض سياسية أو حزبية أو عقائدية فإننا نتتج "تاريخا أيديولوجيا"، لأنّه إذا ما استعمل من طرف النخبة السياسية والسلطة الحاكمة ينتج "تاريخا رسميا". أمّا إذا استعمل لأغراض الهويّة فإنّه ينتج "تاريخ الذاكرة".

ورغم أنّ العلم لا وطن له وأنّ الدراسات التاريخيّة يجب ألاّ تكون نابعة من نظريات قطرية وإقليمية، بل يجب أن تنفتح على المدارس الأخرى التي تمتزج وتتفاعل مفاهيمها بين المؤرخين[٥٦]. وبالتالي لا نرى ضرورة أن تكون هناك مدرسة تاريخية تونسيّة متفرّدة في اتجاهاتها بحيث يستمد المؤرّخ التونسي من واقع فهمه للمجتمع التونسي ومن واقع البيئة التونسية وأن تكون قريبة من ثقافتنا ومتصلة اتصالاً عميقًا بنفسيّة وعقليّة التونسي.

- إعادة النظر في تحقيب تاريخ تونس المعاصر حيث مازلنا ندرّس لطلابنا تاريخ تونس المعاصر المعاصر يبدأ بالاحتلال الفرنسي للبلاد، وهو في اعتقادنا أمر غير مقبول لأنه لا يمكن أن يكون منطلق هذه الفترة باحتلال أجنبي لتونس! لذا يجب أن نبحث عن بداية جديدة منطقية لهذا التاريخ عبر وقفة جادة من المؤرّخين التونسيّين بتحديد تاريخ واضح تكون منطلقًا لتاريخنا المعاصر مثل سنة ١٨٦٤ تاريخ اندلاع انتفاضة علي بن غذاهم.

- إعادة النظر في تسمية تاريخ تونس خلال الفترة الاستعمارية بـ "تاريخ الحركة الوطنية" لأنّ تاريخ هذه قد ارتبط للأسف بتنظيمات سياسية ورموز وزعماء سياسيّين بعينهم دون سواهم

وفي مقدمتهم: الحزب الدستوري الجديد وقادته على غرار الحبيب بورقيبة ومحمود الماطري والطاهر صفر...، وبدرجة أقلّ عبد العزيز الثعالبي وصالح بن يوسف ومحمّد علي الحامي فرحات حشّاد... وفي ذلك إقصاء وتقليص من أدوار عديد الشخصيات والمنظمات والجمعيات السياسية الوطنية، على الصعيدين المركزي والجهوي.

- إعادة ضبط البرامج والمناهج الدراسية في مادة التاريخ بإقرار تدريس جميع الفترات والأحداث والتنظيمات والشخصيات الفاعلة في تاريخ تونس، بما فيها والأحداث والتنظيمات والشخصيات والفترات "السوداء" والمثيرة للجدل، لأنّ تدريس هذه الأخيرة يمكّن المتقبلين من مقارنتها بالأحداث والتنظيمات والشخصيات والفترات الزاهية من تاريخ البلاد ودفعهم إلى التوقي منها كما هو الشأن بالنسبة لأواخر فترة حكم بورقيبة وسنوات الجمر من حكم بن علي.

- عدم تسييس مادة التاريخ من قبل رجال السياسة حتى لا نعود ثانية لمربع "التاريخ الرسمي الوردي" كما الحال لفترتي حكم بورقيبة وبن علي بجعل التاريخ علما من العلوم الانسانية "المستقلّة" والمتحرّرة من رقابة الحزب الحاكم والدولة وإقرار تدريس جميع الأطراف الفاعلة في صنع دون استثناء أو تفضيل لطرف على الآخر.

- تجريم العبث بالوثائق التاريخيّة الرسمية التي تُعدّ جزءًا من الذاكرة الوطنية وتراثًا وطنيًا، يجب على الدولة حفظه وحمايته شأنه شأن المعالم والمواقع الأثرية.

- عدم إقرار تدريس فترتي "ثورة" الحرّية والكرامة والانتقال الديمقراطي في تونس (من سنة ٢٠١٠ إلى اليوم) لأنّ تدريسها يستوجب حيزا زمنيا لكتابتها يقتضي من الباحثين والمؤرّخين الاطّلاع على الأرشيفات والوثائق الرسمية وعديد الشهادات لشخصيّات رسمية سياسية وعسكرية وأمنية...، فاعلة في هذه الفترة الحرجة من تاريخ تونس بغاية تحديد جذورها وآلياتها وأطوارها بآمالها وخيباتها وبنجاحاتها وانتكاساتها...

خَاتِمَةٌ

يمكن القول في خاتمة هذه المحاولة للتأريخ للنخبة السياسية التونسية في تونس المستقلّة أنّ هذه الأخيرة لم تكن متجانسة اجتماعيا وايديولوجيا وفكريا... ورغم أنّ ذلك يعدّ معطى إيجابيًا وعنصر إثراء للطبقة الحاكمة وعنصر دفع للمجتمع التونسي عامة، فإنّ هذه النخبة السياسية للأسف لم تستفد من هذا التنوّع ولم تدخل طور "الكتلة التاريخيّة" بما للكلمة من معنى. فكان هاجسها الأول والأخير البقاء أكثر ما يمكن في الحكم. ولم يقتصر الأمر على "احتكار" السلطة لصالحها، بل أقصت ونكّلت بكل من لم ينتم إليها فكريًا وايديولوجيا وخاصّة حزبيًا وأسّست لمنظومة "الرأي الواحد" و"الحزب الواحد" والزعيم الأوحد"...، التي تكرّست بوضوح على أرض الواقع وأثبتت بما لا يدعو للشك أنها تمرّ بمحنة عميقة. ولهذه المحنة مؤشرات عديدة، من أهمّها الفجوة العميقة بين السياسات التي تطبّقها تلك النخبة والمطالب الشعبية من ناحية، وخداعها لشعبها من ناحية أخرى!

وقد أثّرت هذه السياسة سلبًا على المشهد السياسي طيلة العقود الثلاثة من الحكم البورقيبي وألقى بضلاله على الحياة السياسية طيلة أكثر من عقدين من حكم بن علي. ونتيجة لذلك لم تتمكّن بعد ستين سنة من استقلال البلاد من تضميد جراح الماضي وما اعتراه من جراح وآلام وضغائن وأحقاد...، ولا من كتابة تاريخ موضوعي بطرق ومواصفات علمية بعيدة عن الحسابات السياسية. ونتيجة لذلك كان تاريخها ذاتيًا نرجسيًا وثأريًا ومشوّهًا في الغالب، بعيدًا كل البعد عن المعايير والمقاييس العلميّة الموضوعيّة المعمول بها في جميع دول العالم. ولا يمكن في اعتقادنا التأسيس لهذا الجنس من الكتابة إلاّ بتوفّر جملة من الشروط الموضوعية والذاتية في أوساط النخبة السياسية التونسية. ويمكن تلخيص الشروط الموضوعية في الجوانب التالية: وضع جميع الأرشيفات والأرصدة الأرشيفية والوثائق التاريخية في مراكز مختصّة بعد تصنيفها وجردها وتبويبها من قبل خبراء في علم الأرشيف ومختصّين في التاريخ المعاصر وتاريخ الزمن الراهن وفتحها أمام كل الباحثين والمؤرخين دون استثناء (مهما اختلفت توجهاتهم الأيديولوجية والفكرية وانتماءاتهم السياسية) وذلك بعد استيفاء الشروط المعمول بها دوليًا للنفاذ للأرشيفات والتأكد من أنّ عملية فتحها لا تمسّ بسلامة وأمن الدولة والدول المجاورة والصديقة لتونس وكذلك الشخصيات التي ما تزال على قيد الحياة أو أبنائهم وأحفادهم.

أمّا الشروط الذاتية فهي بالأساس: الابتعاد عن الشخصنة و"الاستنقاع السياسي" باستقطاب جميع الكفاءات المغيّبة من الحقل السياسي من جهة، وتدبير ثقافة ديمقراطية حزبية من جهة ثانية وخاصّة التأسيس لمشروع كتابة تاريخية موضوعية لكل مكوّنات المجتمع دون استثناء...، لأنّ النخبة السياسية أينما كانت ليست في نهاية المطاف موضوع دراسة وتحليل وكتابة من قبل المؤرّخين والباحثين، بل يجب أن تكون بالأساس مصنعًا لإنتاج الأفكار والمشاريع والحلول لمجتمعها وإلاّ فإنه ليس لبقائها في السلطة مكانًا.

واليوم بعد سقوط نظام الاستبداد وتحرّر الأقلام والأفواه والعقول في تونس إثر "ثورة" الحرّية والكرامة في تونس، فقد سجّلنا لحسن الحظ عودة "قويّة" للتاريخ منذ الأيّام الأولى لسقوط نظام الاستبداد في ١٤ جانفي/يناير ٢٠١١. وقد تجسّمت هذه العودة في حضور غير مألوف للمؤرخين والمناضلين والسياسيّين المغيّبين منذ عقود وذلك في الإذاعات والقنوات التلفزية والمنابر السياسية والفكرية...، بجميع المدن والقرى والأرياف التونسية، إمّا لطرح قضايا وملفات تاريخية أو لإحياء لذكرى أحداث ومحطات وشخصيّات وطنية ومحلية كادت تُنسى كليًا.

ورغم أنّ هذه العودة تُعدّ مؤشرًا إيجابيًا في تونس المتحرّرة، فإنّها لم تخلُ من التوظيف السياسي من قبل أحزاب وشخصيات سياسية داخل نظام الحكم وخارجه طيلة كامل الفترة الانتقالية. وهي في اعتقادنا فترة تستحقّ دراسة مستقلة بذاتها قصد تقييم أشكال حضور التاريخ وعودته على الساحة والتأسيس لإرساء أسس مصالحة فعليّة بين التونسيّين وتاريخهم على أسس علمية سليمة.

الهَوامِشُ:

(١) من أبرز المؤرّخين الذين أحدثوا ثورة في كتابة التاريخ من أسفل، الأميركي "هوارد زين "Howard Zinn" (١٩٢٢-٢٠١٠) أستاذ التاريخ الأميركي اليساري المناضل الذي أصدر كتابًا بعنوان: "تاريخٌ شعبيٌّ للولايات المتحدة الأميركية". وقد اعتمد فيه على شهادات المقهورين من سكّان البلاد الأصليّين، أو من العبيد الذين استجلبوا من إفريقيا، أو من أبناء الطبقة العاملة الذين استنزفت قواهم المصانع الأولى التي أنشئت في الولايات المتحدة الأميركية.

Howard Zinn, Une Histoire populaire des États-Unis de 1492 à nos jours, Agone, coll. «mémoires sociales», 2002.

وقد تولّى المركز القومي للترجمة في مصر ترجمة هذا الكتاب، وكُتبت عنه سلسلة من المقالات للتعريف به.

(٢) تعود كتابة المذكرات واليوميات من طرف الملوك والرؤساء بمفردهم أو بالاسعانة بإخباريّين وكتاب ومؤرخين إلى العصور القديمة. وبالنسبة للتاريخ المعاصر وبأوروبا والولايات المتحدة تحديدا نذكر مذكّرات كل من: الزعيم شارل ديغول، ورئيس الوزراء البريطاني وانستن تشرشل، والرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران وخلفه الرئيس جاك شيراك، والمستشار الألماني هلموت كول... أمّا بالنسبة الملوك والرؤساء العرب يمكن ذكر مذكّرات كل من: عبد الله بن الحسين، **مذكرات الملك عبد الله**، المطبعة الهاشمية، عمان، ١٩٧٠. واللّواء محمّد نجيب أول رئيس لمصر: **كنت رئيسًا لمصر**، المكتب المصري الحديث، القاهرة ١٩٨٤، ٤٢٠ صفحة. وممدوح رضا، **مذرات الملك طلال**، دار الزهراء للإعلام العربي 1991. والشاذلي بن جديد، **ملامح حياة**، دار القصبة للنشر، الجزائر ٢٠١١، الجزء الأول، ٢٧٩ صفحة. ومختار ولد داده، **موريتانيا على درب التحديات**، دار كارتلا للنشر، باريس ٢٠٠٣ (بالفرنسية):

La Mauritanie contre vents et marées, éditions Karthala, Paris 2003, 650 pages.

وقد أصدر الرئيس الموريتاني السابق معاوية ولد سيدي أحمد الطايع المقيم بالدوحة كتابا بعنوان: **نجاة العرب**، شركة البراق للنشر والتوزيع، الكويت ٢٠١٢، ٤٧٠ صفحة. وهو بمثابة خواطر تحدث فيه عن الربيع العربي والثورات التي تشهدها بعض الدول العربية. وهو ويستعدّ هذه الأيام لإصدار مذكراته بمساعدة عدد من الكتاب والمؤرخين وضعهم على ذمته أمير قطر بمقرّ إقامته بالدوحة... وغيرها كثير.

(٣) عادل بن يوسف، **الطلبة التونسيّون بالجامعات الفرنسية ١٨٨٠-١٩٥٦: دراسة لملامح النخبة العصريّة ومواقفها من أبرز القضايا الوطنيّة والدوليّة**، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر تحت إشراف الأستاذ محمّد الهادي الشريف، (٣ أجزاء ١١٤٦ صفحة)، تمّت مناقشتها يوم ٥ أفريل/أبريل ٢٠٠٠ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس. صدرت في طبعة مخفّفة تحت عنوان: **النخبة العصريّة التونسيّة (١٨٨٠-١٩٥٦): طلبة الجامعات الفرنسية نموذجا**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بسوسة ودار الميزان للنشر، سوسة مارس ٢٠٠٦، ٨٢٦ صفحة.

(٤) **القاموس المحيط**، حرف السين، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٥.

(٥) المرجع السابق.

(6) Alfio Mastropaolo, «La double théorie de la classe politique de Gaetano Mosca», in Revue internationale de politique comparée, n° : 4/2004, Vol. 11, pp. 611-630.

(٧) عادل عامر، **"النخب العربيّة ومطلب الإصلاح الديمقراطي"**، جريدة الإسماعيليّة براس الالكترونيّة بتاريخ ١٨ ماي/مايو ٢٠١٢.

(٨) أ. د. أحمد زايد، **"نخب ما بعد الاستعمار"**، جريدة الأهرام الديمقراطية، الكترونيّة بتاريخ ٠٣ ماي/مايو ٢٠١٢.

(٩) فرحات عبّاس، **الشابّ الجزائري**، جون بارك، باريس ١٩٣١، ص ٩١. [أعيد طبعه سنة١٩٨١] (بالفرنسيّة):

Ferhat Abbas, Le jeune algérien, La jeune Parque, Paris, 1931, p.91, [réédition Garnier, 1981].

(١٠) فرنسوا دوس، **الرّهان البيوغرافي: كتابة حياة**، منشورات لا ديكوفرت، باريس ٢٠٠٥. (بالفرنسيّة):

François Dosse, Le Pari biographique : écrire une vie, éditions la découverte, Paris 2005.

(١١) المرجع السابق.

(١٢) كان أوّل مَنْ نطق بهذه الجملة الكاتب والشاعر والصحفي الفرنسي "روبار برازياك "Robert Brasillach" (١٩٠٩-١٩٤٥) الذي عُرف بتعامله مع النازيّين زمن الحرب العالمية الثانية ومواقفه المتطرفة التي عبّر عنها في النشريات النازية التي أشرف عليها. وتورد بعض المصادر أنه نطق بجملته هذه يوم ٠٦ فيفري/فبراير ١٩٤٥ عندما كان ينفّذ عليه حكم الإعدام بتهمة الخيانة والتعامل مع العدوّ. أمّا من الجانب الأكاديمي فتُنسب المقولة إلى المفكّر ومؤرّخ الفنّ الألماني والناقد الأدبي من أصل يهودي "والتر بنيامين" Walter Bendix "Schönflies Benjamin (١٨٩٢-١٩٤٠) المتأثر بالمادية التاريخية. وقد استعملها من جانب نقدي سنة ١٩٤٠ كي يميّز بين مدوّن الأخبار الذي يتأثر بالمنتصر وبما هو ظاهر، وبين المؤرخ المادي الذي يهتمّ بالإنسان منتصرًا كان أم منهزمًا.

(١٣) تمّ تجميع النصوص والتسجيلات الصوتية لجميع خطب بورقيبة بين ١٩٥٥ و١٩٧٥ وتفريغها وترجمتها إلى الفرنسية. وبحرص من مدير الحزب الدستوري الحاكم والمؤرّخ الرسمي للقصر، الأستاذ محمّد الصيّاح صدرت عن دار العمل بين ١٩٧٧ و١٩٨٤ مبوّبة ومرتبة ترتيبا كرنولوجيا في ٣٤ جزء (باللغتين العربية والفرنسية) تحت عنوان: **خطب بورقيبة**. تُضاف إليها الإصدارات الخاصة بأهمّ محطّات الكفاح الوطني من ٠٢ مارس ١٩٣٤ إلى غاية ١ جوان/يونيو ١٩٥٥.

(١٤) لمزيد التفاصيل حول هذه المحاكمات انظر: جماعي، **المحاكمات السياسية بتونس ١٩٥٦- ٢٠١١**، جزءان، منشورات المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، جامعة منوبة، تونس ٢٠١٥.

(١٥) لمزيد التفاصيل حول هذه المحاضرات انظر: عبد الجليل بوقرّة، **بورقيبة بلسان بورقيبة**، دار آفاق - برسبكتيف، ٢٠١٥، ٣٨٢ صفحة.

(١٦) الحبيب بورقيبة، حياتي آرائي جهادي، **نشريات** وزارة **الإعلام**، **ص١٥٠-١٥١.**

(١٧) المصدر السابق، ص ١٤٦.

(١٨) خطب الحبيب بورقيبة، الجزء الأوّل: **خطاب بتاريخ ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٥٥**، نشريات وزارة الإعلام، تونس ١٩٧٩.

(١٩) الحبيب بورقيبة، **حياتي آرائي جهادي...**، ٢٧٩.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ص ٣٦-٣٧.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٢٢) ملك نوميدي ولد سنة ١٦٠ ق.م قاد أحد أشهر الحروب البربر ضد الرومان بين ١١٠ و ١٠٥ ق.م. وإثر هزيمته اقتيدَ إلى روما حيث حكم عليه بالإعدام. لكنه آثر الانتحار شنقا سنة ١٠٤ ق.م في نافذة زنزانته عن الموت بهذه الطريقة وتلبية رغبة الرومان.

(٢٣) قائد عسكري ورجل دولة قرطاجي ولد بقرطاج سنة ٢٤٧ ق.م التي غادرها في سنّ التاسعة نحو قرطاجنّة بإسبانيا. وفي سنة ٢١٨ ق.م قاد الجيش القرطاجي في الحرب الثانية ضد روما انطلاقا من اسبانيا عابرا جبال الآلب والبيريني بجيوشه وفيلته إلى غاية روما التي حاصرها وكاد يطيح بها إثر عدة انتصارات ضد جيوشها. غير أنّه هزم في الطور الافريقي من الحرب في معركة زاما سنة ٢٠١ ق.م. اضطرّ إلى مغادرة قرطاج للاستقرار بآسيا الوسطى هروبا. لكنّ الرومان لاحقوه إلى غاية

هناك وعند أسره سنة ١٨٢ ق.م. آثر الانتحار على الطريقة الفنيقية بسمّ في خاتمه.

(٢٤) لمزيد التفاصيل حول هذه الاستعارة انظر: عدنان منصر، دولة فصول في الأيديولوجيا والممارسة (١٩٥٦-١٩٧٠)، تقديم الأستاذ حسين رؤوف حمزة، كلية الآداب والعلوم الانسانية بسوسة، تونس ٢٠٠٤، ص ٣٥. ولم يشذّ العقيد الراحل معمّر القذافي عن هذه الصورة حيث نُعت سنة ١٩٧٠ بـ "رسول الصحراء". انظر كتاب: ميريلا بيانكو، **القذافي رسول الصحراء**، الطبعة ١، دار الشورى، بيروت/لبنان ١٩٧٣، ٣٠٤ صفحة. وهو ترجمة للحوارات التي أجرتها معه ميريلا بيانكو باللغة الايطالية. وقد تُرجم إلى عدة لغات وصدر الفرنسية سنة ١٩٧٤ وبالانجليزية سنة ١٩٧٥.

(٢٥) مناضل من الرعيل الأول للحزب. من مواليد مدينة قصر هلال. حوكم سنة 1968 من أجل انتمائه للتيار البعثي في تونس. غادر البلاد ليعيش بين سوريا وفرنسا حيث توفي عام ١٩٧٨.

(٢٦) وهي أوّل زيارة رسمية للعقيد معمّر القذافي لتونس منذ توصول بن علي إلى الحكم في شهر جانفي ١٩٩٠ بمناسبة انعقاد القمّة المغاربية الأولى بتونس بعد إنشاء اتحاد المغرب العربي في مدينة مراكش في ١٧ فيفري/فبراير ١٩٨٩.

(٢٧) مناضل من الرعيل الأول ولد بقرية ميدون من جزيرة جربة في ١٢ مارس ١٩١٣. انخرط في الحزب الدستوري الجديد منذ تأسيسه سنة ١٩٣٤ **ونُفي** مع زعماءه في سجون ومنافي المستعمر الفرنسي بتونس تونس وفرنسا ولقّب بـ "قائد النضال الحزبي". وكان من أشرف على تأسيس أوّل مدرسة عسكرية للجامعة الدستورية بتونس، ولعب دورا محوريا في إذكاء المقاومة السرية والمظاهرات التي عمّت البلاد بين ١٩٥٢ و١٩٥٤، وعندما ضيّق عليهم الخناق في تونس انتقل إلى ليبيا حيث فتح مكتب الحزب الدستوري بطرابلس وأشرف على تدريب المناضلين الذين ساهموا في معركة التحرير ونال الكثير منهم الشهادة في سبيل ذلك. لكن منذ سنة ١٩٥٥ انحاز علي الزليطني إلى صالح بن يوسف ضد الحبيب بورقيبة. ومن المؤسف أنّ كامل أرشيف علي الزليطني ومكتبته قد تمّت مصادرتها أيام التحقيق في المحاكمة الكبرى لليوسفيّين في جانفي ١٩٥٧. حُكم عليه بعشرين سنة أشغالا شاقة، قضاها بسجن غار الملح. وفي ٣٠ ماي/مايو ١٩٦٠ وقع الإفراج عنه من طرف الرئيس الحبيب بورقيبة. وفي ١٥ أوت/أغسطس ١٩٦٠ تزوج لكنه لم ينجب أبناء. وفي يوم ٢٢ جويلية/يوليو ١٩٦٨ ورغم تفرغه للعمل الفلاحي والنأي عن السياسة ألقي عليه القبض ثانية بتهمة محاولة اغتيال بورقيبة ولم يتمّ الافراج عنه إلاّ في ١٥ جانفي ١٩٦٩. وفي ٥ أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٦ توفّي علي الزليطني بمرض عضال جراء معاناته في السّجون الفرنسية والتونسية.

(٢٨) **الزعيم علي الزليطني - سيرة ونضال**، تقديم الأستاذ محمد عبد الكافي، تحقيق فوزيّة محمّد حفظي الزليطني، دار صامد للنشر، صفاقس، ٢٠١٣.

(٢٩) عدوان أقدمت عليه القيادة العسكرية الفرنسية بالجزائر صبيحة يوم الخميس ٨ فيفري/ فبراير ١٩٥٨ بحجّة "حقّ الملاحقة" Droit de poursuite" ضد المقاومين الجزائريّين المقيمين بالقرى التونسية والذين كانوا يشنون غارات مفاجئة على أهداف عسكرية فوق التراب الجزائري: ثكنات ومراكز جندرمة... وكان اختيار ذاك اليوم مقصودًا لكونه يوافق يوم سوق أسبوعية يقصدها جميع سكان القرى والأرياف التونسية والجزائرية على حد سواء لشراء مستلزماتهم من غذاء وملبس ودواب... وكانت حصيلة العدوان سقوط ١٣٠ قتيلاً و٤٠١ جريحًا من الجانبين التونسي والجزائري، جميعهم من المدنيّين، ١٠ قتلى من تلاميذ المدرسة الابتدائية في القرية. لمزيد التفاصيل حول العدوان انظر الكتاب الصادر عن المناضل الأستاذ الهادي البكوش (أول رئيس حكومة لنظام بن علي بين ٧ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٨٧ و٢٧ سبتمبر/أيلول ١٩٨٩) بمناسبة الذكرى الخمسين للعدوان في طبعتين فرنسية وعربية:

Hédi Baccouche, L'agression française contre Sakiet Sidi-Youssef: Les faits et les suites, ISHMNT, Université de La Manouba, 2008, 95 pages.

الهادي البكوش، **الاعتداء الفرنسي على ساقية سيدي يوسف: الوقائع والتداعيات**، تعريب أحمد العايد، محمد بلحاج، المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، منوبة تونس ٢٠٠٨، ٩٥ صفحة.

(٣٠) للتذكير كان والد زين العابدين بن علي السيّد حمدة بن علي متعاونا مع السلطات الفرنسية وتحديدًا مع أعوان الجندرمة والأمن الفرنسيّين بجهة الساحل التونسي وأفلت مرارًا من الاغتيال منذ اندلاع المقاومة المسلحة في ١٨ جانفي ١٩٥٢. وفي سنة ١٩٥٤ أقدم الوطنيّون على قتل شقيقه البشير بن علي رغم كونه لم يكن متعاونًا مع الفرنسيّين، بل قريبا من أعضاء الشعبة الدستورية بحمّام سوسة. المصدر: حوار مطوّل أجريناه مع ابن موطنه المناضل والوزير الأول الأسبق لبن علي، الأستاذ الهادي البكوش ضمن برنامج إذاعي بعنوان: "شهادات حيّة" ببيته بتونس العاصمة يوم ٠٢ سبتمبر ٢٠١٥. وقد تمّ بثّه في أربع حلقات على أمواج إذاعة المنستير: الحلقة ١ بتاريخ يوم الأحد ٢٧ سبتمبر/أيلول ٢٠١٥.

(٣١) مناضل، سياسي ودبلوماسي من مواليد مدينة المهدية سنة ١٩٢٤. زاول تعليمه الابتدائي بالمدرسة الفرنسية-العربية بالمهدية والثانوي بالمدرسة الصادقية. انخرط في الثورة الجزائرية، واحتضنته الجزائر بعد استقلالها سنة ١٩٦٢، حيث تمّ تعيينه مستشارا بشركة "سوناتراك" النفطية. عُرف بمشاركاته وتنظيمه لعديد المظاهرات رفقة شباب المهدية المنخرطين في الشبيبة الدستورية وفي الكشافة التونسية للتنديد بسياسة فرنسا الاستعمارية خاصة إبّان الحرب العالمية الثانية. وبنهاية الحرب اتّهم باتعاطف مع لنازية والعمالة للألمان وحوكم من أجل ذلك. في سنة ١٩٥٥ ساند صالح بن يوسف و"الأمانة العامة" وربط علاقات متينة بالنخبة السياسية الجزائرية وفي مقدمتهم أحمد بن بلّة وهواري بومدين الذي مكّنه من شقّة جزاء خدماته للثورة الجزائرية. لكنه كان يخشاه لاجتماع المعارضين لنظامه بشقّته. ألّف عدة كتب من أبرزها: مأساة أحمد بن صالح: التضليل الاشتراكي في النظام البورقيبي، دار العودة للنشر، بيروت ١٩٧١. والبديل الثوري في تونس، دار الكلمة للنشر، بيروت ١٩٧٩ الطبعة ١، ٣٤٤ صفحة. وسقوط البورقيبية، (د.ت)... وفي سنة ١٩٨٣ أصيب بسرطان الحنجرة ورغم تردده على مستشفيات باريس وجنيف للعلاج فقد توفي يوم ١٣ جويلية/يوليو ١٩٩٠ ونُقل جثمانه الى مسقط رأسه بالمهدية حيث دُفن في موكب حضره عدد كبير من رجال السياسة والثقافة من تونس وعديد الدول العربية.

(٣٢) من مواليد مدينة المنستير سنة ١٩١٥ ناضل في صفوف الحزب الحر الدستوري منذ سنة ١٩٣٨ وعرف الملاحقة والسجن كما صدر ضده حكمان بالإعدام، الأوّل غيابيًا من المحكمة العسكرية الفرنسية بتهمة التعاون مع قوات المحور إبّان الحرب العالمية الثانية والثاني من قبل محكمة القضاء العليا بتونس مطلع الاستقلال بتهمة مناصرة الزعيم صالح بن يوسف. استقر بليبيا وبمصر وبالجزائر ثمّ بالأرجنتين حيث كان "سفيرا" للقضيّة الفلسطينية بأمريكا اللاتينية. توفّي ببيونس أيرس يوم ١٢ ماي/مايو ٢٠١٢ عن سنّ تناهز ٩٧ سنة ودفن في روضة الشهداء بمقبرة الزلاّج. من أهمّ مؤلفاته: "هذه فلسطين: الصهيونية عارية" (تونس ١٩٧١، ٤٤٨ صفحة).

(٣٣) من مواليد مدينة القلعة الكبرى سنة ١٩٢٨. زاول تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه والثانوي بالمدرسة الصادقية منذ سنة ١٩٤٢ حيث ترأس "الشبيبة الدستورية" بهذه المدرسة كما انخرط في الحزب الدستوري الجديد منذ شبابه. اضطلع بدور هام في المقاومة زمن الكفاح المسلّح بين ١٩٥٢ و١٩٥٤. إثر إمضاء اتفاقيات الاستقلال الداخلي في ٠٣ جوان/يونيو ١٩٥٥ وانضمّ على شقّ الأمانة العامة بقيادة صالح بن يوسف وغادر البلاد ليستقرّ بليبيا ومصر والجزائر. وفي سنة ١٩٥٦ حكم عليه غيابيا بالإعدام. ولم يدخل البلاد إلاّ بعد صدور عفو رئاسي من الرئيس بورقيبة في حقّه سنة ١٩٧٨. توفي سنة ٢٠٠٨ ودفن بمسقط رأسه بالقلعة الكبرى.

(٣٤) محمّد نبيل الشيمي، **النخبة في العالم العربي دراسة وصفيّة نقديّة**، موقع الحوار التمدّن، عدد ٣١١٣، ٠٢ سبتمبر/أيلول ٢٠١٠.

(٣٥) شهادة أحد النشطاء الحقوقيّين بمدينة المهدية ممّن حضروا موكب الدفن.

(٣٦) هذه المذكّرات في الأصل مخطوطة كان قد حرّرها الطاهر خير الدين سنة ١٩٣٥ باللّغة العربية وهي تتطابق مع سيرته الذاتية التي حرّرها باللّغة الفرنسية سنة ١٩٢١. وهي من مخلّفات المنضل الصادق الزمرلي. وكان قد عثر عليها ابنه عدنان الزّمرلي فسلّمها إلى الأستاذ حمّادي الساحلي الذي تولّى تحقيقها ونشرها تعميما للفائدة. انظر: فتحي اللّواتي، " قراءة: الوزير طاهر باشا خير الدين (١٨٧٥-١٩٣٧) مذكّرات وخواطر"، المجلّة الصادقية، سلسلة جديدة العدد ١١، أكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٨، ص ٦١.

(٣٧) يمكن تصنيف هذا الإصدار ضمن الكتب الحضارية المتّصلة بالإسلام والمشرق العربي وعلاقتهما بالغرب...، غير أنّه قد تضمّن فصلاً خصّصته الصُّحفيّة المحاورة للأستاذ الشاذلي القليبي لتجربته وذكرياته السياسية وخاصة الدبلوماسية منها، كوزير سابق لبورقيبة وكأمين عام سابق للجامعة العربية على امتداد ١٥ سنة متتالية.

(٣٨) لمزيد التفاصيل حول هذه المسألة وبعض الأمثلة الدقيقة حولها، يرجى الرجوع لدراستنا: **"كتابة المذكّرات والسّير الذاتيّة: رصد وقراءة لإصدارات السياسيّين والنقابيّين التونسيّين منذ سنة ١٩٥٦"**. أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد الجليل التميمي، كتاب في جزئين (عربي وفرنسي)، جمع النصوص وقدّم لها الأستاذ إبراهيم السعداوي، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية للنشر والجمعيّة التونسيّة المتوسطية للدراسات التاريخيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، تونس ٢٠١٣، ص٤٣٩-٤٧٨.

(٣٩) عدنان المنصر، **"جوانب من شخصية الدكتور الماطري من خلال مذكّراته**، المجلّة الصادقيّة "، عدد ٣، جوان/يونيو ١٩٩٦، ص ٧٦.

(٤٠) المرجع نفسه.

(٤١) انظر في الغرض دراستنا بعنوان: "**المرأة والسلطة في تونس خلال فترة الحكم البورقيبي: وسيلة بورقيبة نموذجًا**"، مداخلة بأعمال المؤتمر الخامس حول: **نهاية حكم بورقيبة والقيادات السياسيّة العربية بين الصعود والانحدار**، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، مارس ٢٠٠٥، منشورات مؤسسة التميمي ومؤسسة كونراد أديناور، تونس مارس ٢٠٠٦، ص ٣١-٦٧.

(٤٢) عدنان المنصر، "**المذكّرات الثأرية أو محاكمة الماضي: قراءة في بعض نماذج من المذكّرات السياسيّة التونسية المعاصرة**"، مجلّة روافد، مجلّة المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، العدد الأول، ١٩٩٥، ص ٢٩.

(٤٣) لمزيد التفاصيل حول هذه المذكرات والسير الذاتية انظر دراستنا: عادل بن يوسف، "**كتابة المذكّرات والسّير الذاتيّة: رصد وقراءة لإصدارات السياسيّين والنقابيّين التونسيّين منذ سنة ١٩٥٦**"، ورد في أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد الجليل التميمي، كتاب في جزين (عربي وفرنسي) سلسلة من الدراسات والمقالات بأقلام مؤرّخين من تونس وسائر أنحاء العالم، جمع النصوص وقدّم لها الأستاذ إبراهيم السعداوي، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية للنشر والجمعيّة التونسيّة المتوسطية للدراسات التاريخيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، تونس ٢٠١٣، ص٤٣٩-٤٧٨.

(٤٤) محسن ع، "النسخة الأولى كانت بطلب من بورقيبة: صدور الجزء الرابع من كتاب "**تاريخ تونس**"، جريدة الشروق ليوم ٢٣ جوان/يونيو ٢٠١٠.

(٤٥) جماعي، **تونس عبر التاريخ**، تأليف نخبة من الأساتذة الجامعيّين بإشراف الأستاذ خليفة شاطر. ٤ أجزاء، نشر مركز الدّراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس ٢٠٠٥.

(٤٦) ما يزال بعض الزملاء من أساتذة التاريخ المعاصر بالجامعة التونسية مؤاخذين إلى اليوم نتيجة مشاركتهم في تأليف هذا الجزء الرابع الخاصّ بتاريخ "تونس التحوّل" وخضوعهم لإملاءات الأستاذ زهيّر مظفّر.

(٤٧) لمزيد التفاصيل حول هذه الممارسات انظر الكتاب الأبيض الصادر عن رئاسة الجمهورية بمناسبة الذكرى ١٣ لرحيل الزعيم بورقيبة والمتضمّن لعديد الرسائل المتبادلة بين بورقيبة وبن علي وبعض رفاق دربه وأفراد عائلته... **الكتاب الأبيض حول السنوات الأخيرة من حياة الرئيس الحبيب بورقيبة**، رئاسة الجمهورية، الدائرة الثقافية، تونس ٠٤ أفريل/أبريل ٢٠١٣، ٩١ صفحة.

(٤٨) **سامي الشريف**: من مواليد سنة ١٩٦١، أصيل جهة قابس وخرّيج الجامعة التونسية. متحصل على دكتوراه في الاقتصاد من جامعة باريس ١ (السربون).... تجمّعي خالص ومناشد مستميت ومكوّن قار وعضو باللجنة المركزية للتجمّع وعضو بلجنة التفكير القارة للتجمّع. قاد حملتيْ الرئيس بن علي في سنة ٢٠٠٤ و سنة ٢٠٠٩ وكان مرشّحا بارزا لنفس الخطة في الانتخابات الرئاسية لسنة ٢٠١٤ التي لحسن الحظ لم تتمّ بسبب سقوط النظام يوم ١٤ جانفي ٢٠١١. خلال أكثر من عقد أشرف على تأطير التجمعيّين من رؤساء شعب وجامعات مهنية وترابية... كما عمل صلب إدارة التجمع بالقصبة وبعدها بشارع محمّد الخامس كمكوّنٍ سياسي بارز صلب الأكاديمية السياسية للتجمّع المنحلّ وتخرّج على يديه العديد من كوادر الحزب الحاكم. ألّف عديد الكتب "النوفمبرية" من أبرزها كتاب "بن علي خيار المستقبل". تمّ بعد ١٤ جانفي ٢٠١١ طرده من "معهد تمويل التنمية للمغرب العربي "ايفيد "I.FI.D" L'Institut de Financement du Développement du Maghreb Arabe" ورُفعت في وجهه العبارة الثورية الشهيرة "إرحلDégage "".

(٤٩) خصّصت اللجنة الوطنية لتقصّي الحقائق حول الفساد والرشوة حيزا هاما من تقريرها الصادر في نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠١١، لملف "الوكالة التونسية للاتصال الخارجي"، تضمّن قضايا عديدة تعلّقت بالخصوص بسوء التصرف في الموارد البشرية والفساد المالي صلب الوكالة والهدر المفرط للمال العام، كان المثقفون التونسيّون وخاصّة

الأجانب - وفي مقدمتهم الجامعيّون - من أبرز المنتفعين به. راجع التجاوزات في: **التقرير النهائي للجنة الوطنية لتقصّي الحقائق حول الفساد والرشوة**، تونس، ١١ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠١١، ٥٠٠ صفحة. انظر النصّ الكامل للتقرير على الموقع الالكتروني التالي:
http://www.fichier-pdf.fr/2011/11/13/fichier-sans-nom-3/

(٥٠) زينب **جويلي**، بن علي نقطة سوداء في تاريخ المثقف التونسي، **تصريح لقناة صدى البلد ليوم ٢٨ فيفري/فبراير ٢٠١٢.**

(٥١) المرجع السابق.

(٥٢) شهاة الأستاذ عبد الجليل التميمي.

(٥٣) محمّد الطّاهر المنصوري، جزيرة قبرص في المصادر العربيّة الوسيطة **(بالفرنسية):**

Mohamed Tahar Mansouri, Chypre dans les sources arabes médiévales, Nicosie, Centre de recherche scientifique, 2001.

شهادة المرحوم الأستاذ محمّد الطاهر المنصوري.

(٥٤) لمزيد التفاصيل حول مكانة وأدوار المثقفين والجامعين منهم تحديدًا زمن حكم بن علي انظر دراستنا: عادل بن يوسف، "دور المثقّف في المجتمع: الجامعيّون زمن حكم بن علي (١٩٨٧-٢٠١١) نموذجًا"، مداخلة بندوة المعهد التحضيري للدراسات الأدبية والعلوم الانسانية بتونس بعنوان: **الثقافة والالتزام** المنعقد أيام: ١٣، ١٤ و١٥ أفريل/أبريل ٢٠١٣، منشورات أشغال الندوة، تونس ديسمبر/كانون الأوّل ٢٠١٥، ص ١١٥-١٦٥ صفحة.

(٥٥) محمّد أبو العينين، "**كيف يكتب تاريخ مصر التاريخ يبدأ حين تنتهي السياسة**"، جريدة الأهرام ليوم 25 أكتوبر/تشرين الأول ٢٠١٣.

(٥٦) المرجع السابق.